

الخالدات ١٠٠
أولاهنَّ
السيدة مريم
نماذج من أعظم نساء التاريخ
إعداد وتقديم الطبيب
د. أحمد سلامة إبراهيم
دار الكتاب العربي
الأم

الفهرس

"تم بحمد الله"



السيدة مريم العذراء

(السيدة التي اصطفاها الله من نساء العالمين)



السيد العذراء مريم تستحق أن نبدأ بها هذا العمل كأعظم سيدات عالمنا، وفخر سيدات الأرض إلى يوم القيامة، وهي المرأة الوحيدة التي ذُكر اسمها في القرآن الكريم ووصفت بأنها التي اصطفاها الله على نساء العالمين.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾

(آل عمران:٤٢)

لم توجد إنسانة أحبها الناس في المسيحيّة والإسلام مثل السيدة العذراء مريم، أي أن الذين يحبونها ويعرفون قدرها ما يربو على ٢,٥ مليار من البشر على سطح هذه الأرض.

ولقبت السيدة مريم بأم النور وهي تستحق هذا اللقب الجميل المُعبر، حيث أنها تربت وعاشت حياة الصلاة والتأمل والزهد منذ طفولتها، وأنجبت للبشريّة سيدنا عيسى (عليه السلام) رسول المحبة والسلام، الذي أنزل الله عليه الإنجيل (الكتاب المقدس) بما فيه من آيات وشواهد عظيمة غيرت من وجه البشرية وأنارت لها مبادئ الحب والمحبة والتسامح والأيمان بالله، تلك الأسس والدعائم الجميلة في الديانة المسيحية.

كانت السيدة العذراء تحيا حياة التسليم، لا تعترض ولا تقاوم ولا تحتج، بل تسلم لمشيئة الله في هدوء بدون جدال.

تيتمت من والديها الاثنين وهى في الثامنة من عمرها وتحملت حياة اليتم وعاشت في الهيكل (المحراب) وهى طفلة، وهناك تعلمت حياة الوحدة والصمت وأن تنشغل بالصلاة والتأمل.

إنّ العذراء الصامتة الصابرة المتأملة درس لنا، فليتنا مثلها نتأمل كثيرًا ونتحدث قليلاً.

ويبدو تبجيل العذراء في تحية سيدنا جبريل لها " السلام لك أيتها الممتلئة نعمة، الرب معك، مبارك أنتِ في السماء (لو١:٢٨).

وفي قصة حمل السيدة مريم العذراء بسيدنا عيسى (عليه السلام) معجزة إلهيه بشرها بها الله وملائكته كما ورد في القرآن والإنجيل.

وتحتفل الكنسية بداية من يوم ٧ أغسطس بصوم السيدة العذراء، تقديرا وإجلالا لها، وهو صوم يهتم به الأخوة المسيحيين اهتمامًا كبيرًا، ويمارسونه بنسك شديد والبعض يزيد عليه أيامًا وذلك لمحبة الناس الكبرى للعذراء مريم ويقام عيد كبير للسيدة العذراء في كنيستها الأثرية بمسطرد في جمهورية مصر العربية.

وشهر مسرى (من الشهور القبطية) هو الشهر الذي بشر الله أباها يواقيم بميلادها، ففرح بذلك هو وأمها حنة، ونذراها للرب ويوم ٣ كيهك هو اليوم الذي دخلت فيه لتتعبد في الهيكل (المحراب) في الدار المخصصة للعذارى، وجاءت إلى مصر بصحبة سيدنا عيسى (عليه السلام) ومعها يوسف النجار هروبا من بطش الرومان يوم ٢٤ بشنس وقد تشرفت أرض مصر وتباركت بتلك الرحلة المقدسة من شمال مصر إلى جنوبها وتوجد كنيسة باسمها في حي المعادى على كورنيش النيل بالقاهرة وهو المكان الذي عبرت من شرق النيل إلى غربه بصحبه سيدنا عيسى (عليه السلام) وتوجهت منه إلى صعيد مصر حتى مدينة أسيوط.

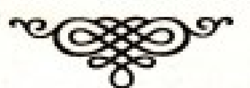
وهناك احتفالاً يقام سنويا لها بأسيوط في جنوب مصر ويحضر هذا المولد حوالي ٢ مليون نسمة من أقباط مصر بمسلميها ومسيحيوها تكريما لها.

لقد أختار الله هذه الفتاة الفقيرة اليتيمة لتكون أعظم امرأة في الوجود كما ذُكر في القرآن الكريم والإنجيل، ولذا بدأنا هذا الكتاب بسيرتها العطرة.

2

السيدة خديجة بنت خويلد

(أم المؤمنين وأول من آمن من النساء)



هذه السيدة العظيمة أم المؤمنين هي أول من أسلم من النساء وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله. خديجة بنت خويلد الأسديّ، ولدت في بيت عز وثروة، وذات حسب حسيب ونسب شريف، ونشأت على الفضائل مقصورة والبيئة الجغرافية والاجتماعية التي نشأت فيها خديجة ذات خصوصية عالية، والبيئة العربية التي نشأت بها تتصف بالحمية والضيافة والكرم والجود والغيرة، والأريحية، والعصبية للأهل وحماية الجوار وصفات أخرى كثيرة.

مات أبوها فصارت سيدة أموالها، وانضاف إليها ما كان من ميراث لها من عند زوجيها وباتت سيدة تجارة لها مراسيل وعملاء ووكلاء وعمال يصدرون بأوامرها. ونشط إليها علية القوم يخطبونها للزواج لكنها رفضت.

يسعنا أن نقول: إنّ الحياة قد أعطت خديجة أشهى ما يمكن أن تعطيه لامرأة من ملذات العيش، فهذه الثروة لم تحرم منها ولو يوم واحد طوال عمرها، ولذا خلا قلبها من أطماع وأحقاد، ولا تخشى بأساً، فهي تحيا وسط بيئة أعظم سلطان فيها هو المال، فلن تخش شيئًا ما دامت تملكه.

البيئة العربية كلها وخاصة قريش مصدر ثرائها هو التجارة، ويقال قريش من قرشت البضاعة ثم فرقتها أي جمعتها ثم فرقتها.

كان مال خديجة كله في التجارة، وهي لم تخرج به للشام أو لليمن، بل تكتري غيرها ؛ ليخرج في تجارتها، حسب ما كان معمولاً به حينذاك.

ولقد أكثر رواة السير من الحديث عن عمل محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- في تجارة خديجة، وحُسن سياسته، ووصف غلام خديجة - ميسرة - لها الرحلة، وكيف كان ربح محمد في الشام، فكأنه قال لها: كنّا إذا ذهبنا نبيع أقبل التجار علينا كأن ليست بضاعة غير بضاعتنا في السوق فنبيع كما نشاء، وتجار قريش حولنا يعجبون، وقالوا: لعل محمدًا قد سبق إليهم باتفاق، فأخذوا منه وتركونا.

ثم إذا جئنا نشتري كأن السوق قد خلا إلاّ منا والجميع يعرض علينا بضاعته، فنشتري كيف نشاء، فازداد عجب قريش، وكان ربحنا وفيراً.

وقيل: إن محمدًا وقع في نفسها موقعًا حسناً، ورأت فيه ما لم تكن تراه في غيره؛ لأنه كان يندر أن يصل الشاب إلى سن العشرين بلا نكاح، ومحمد قد بلغ الخامسة والعشرين، وهو حسيب نسيب في أهله، وجلد قوي البنية، فلِمَ لا يتزوج ؟ هم يسمونه في مكة الصادق الأمين، كان يمكنه مع توفر الربح هكذا أن يختزن منه قليلاً لنفسه، على الأقل يعطيها الربح المعتاد، ويقتنص الفائض عنه، وهو في حاجة إليه، خاصة أنه أعزب.

لكنه لم يفعل، فهو أمين حقًا مع الفاقة، وأمامه الثروة، هذا خلق بحق نادر.

إذن ففي محمد تتمثل هذه النفائس الروحية التي لم تجدها عند غيره، فهل تطلبه للزواج؟!

وقد رأت خديجة في منامها يومًا شمسًا تحط في دارها وتستقر في حجرها، ثم خرجت من حجرها إلى الدنيا فملأتها نوراً، فذهبت - خديجة - برؤياها هذه إلى ورقة بن نوفل، وقصتها عليه، فأنبأها - تأويلاً لرؤياها - بأنها ستتزوج رجلاً يصير نبياً، ويكون نبي آخر الزمان، ونور دعوته سيعم الدنيا، فباتت تترقب هذا الذي يستأهل مراتب الأنبياء، حتى هدتها فطرتها - التي سنعوّل على استقامتها هي الأخري - إلى أن محمدًا بصفاته هذه يمكن أن يكون نبياً. أرسلت خديجة امرأة عجوز إلى محمد تتحاور معه أكثر من أن تُعرض عليه أمر الزواج، فوافق سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم،

قيل: إنّ عمها هو الذي زوّجها، رفض أهلها فقر محمد ويتمه. لعل هذا صحيحاً، فقد أوردت الكتب أن أبا طالب بن عبد المطلب (عم الرسول وكافله) هو الذي ذهب ليخطبها له، وقال فيما قال يومئذ: إن محمدًا حيث ما علمتم في أهله حسبًا نسبًا، وهو صادق الوعد أمين، وعلمتم من كرم أخلاقه وطيب عنصره، وصدقه ما علمتم، وإن كان محمد في قل من المال، فإن المال عرض زائل وظل لا يدوم. فأثنوا على قوله وانكحوه خديجة. ذلك أن الإنسان العظيم إذا همّ بفعل شيء وجد فيه سعادته، وهناءته فإنه يقاوم الدنيا لأجله.

إن خديجة قد زوجت نفسها بمحمد صلى الله عليه وسلم، وما أهلها وما أهله وما الولائم وما الطقوس كلها إلا مسايرة للأوضاع وتمشيًا مع العُرف السائد.

وتخبرنا الروايات أن محمدًا في الخمس سنوات الأخيرة قبل البعثة قد حُببت إليه الخلوة، فكانت تمده بالطعام وترسل غلامها زيد بن حارثة إليه يتفقده.

لقد رأت خديجة في محمد إشباع كل مطالب الروح وصفات وفضائل قوم كأنهم مع السماء، لا في هذه الأرض المملوءة بألوان الدنايا والخطايا.

ولسوف تتخذ خديجة نفس موقف البشرية عندما تستقيم فطرتها، فتبحث عن الهداية وأنها قد أغلقت على نفسها الحياة حتى تجد محمداً. فعند محمد - أيتها الإنسانية - ماليس عند غيره، وما يمكن أن يعطه محمد لا يمكن أن نجده عند غيره في الأولين أو الآخرين.

نقول: إنها هي الأحوج إليه، وإنّ حاجتها والبشرية إليه سواء، لكنها اهتدت إليه مبكراً، أما الإنسانية فترجح عندها الإهتداء إليه، بعد إعلان اتصال السماء به بعد اتصاله بخديجة.

خديجة تلك الربانية التي جاءت في شكل بشر، لكننا نعود إليها وقد تزوجته، وسكت التارخ طويلاً عن أشياء هامة حتى جاءت الليلة التي جاء فيها له الملاك يقول جبريل: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (العلق:١-٢). كم مر بنا أحاديث عن النساء، لكننا لم نقف عند حديث عن واحدة منهن. أقصد زوجات الأنبياء على هذا الأمر، فهذا محمد مع خديجة قبل الزواج ثم قبل بعثته وأثناءها. اليوم صار محمد نبيًا مكلف بإبلاغ الناس ولا يستطيع إلاّ ذلك.

اليوم يعود إلى بيته يخبرها بهذه الزلزلة، وكأنها تطمئنه وتقول: والله لن يخزيك الله أبداً.

الجميع يذهب إلى أن خديجة امرأة كملت لأنها صدقت محمد صلى الله عليه وسلم فور الإعلان، والبعض ظنها كملت لأنها كفرت بآلهة قريش.

إنّ محمدًا كان يعبد ربه على دين الحنيفيّة السمحاء، وكذا زوجه. وفي ذلك الوقت لم يكن يجرؤ على إعلان الإيمان سوى ذوي الرهط، وقلما كانوا يسلمون من العذاب، بل إنّ الرسول –صلى الله عليه وسلم– نفسه كان لا يسلم ولا حتى خديجة.

في مكة فيا لويل زوجة الرسول من المكيّين جميعاً. لذا فإنها وحدها تزيد مكانتها عنهن جميعًا، ولن يغضب الرسول الكريم الحليم لأحد كما كان يغضب لها ومن أحب نسائه إليه.

إنّ خديجة زوجة لو جعلنا كل زوجات الإنسانية ولنفرض أنهن مائة زوجة فيتفاضلن، ويتعالين ويظنن أنهن ملأن الأرض شموخًا ومكانة وشرفًا وسمواً، فإنها حال أن تخرج اليهن، لا يسع الجميع سوى التطلع إليها كثيراً.

أشعر أنّ خديجة لم تكن تنتظر أن يجئ الروح الأمين للرسول ويخبره أنّ الله قد أعدّ لخديجة قصرًا في الجنة من قصب ليس فيه نصب.

ذلك أنها قد اطلعت على مكنونات الجنة وفردوسها الأعلى في روح محمد حين اختارته. فكأن محمدًا في تأهبه لنزول الوحي وفي خلواته التي يظنها خلوات، وروح خديجة معه ترفرف حوله، تود لو تتعمق بمثل ما يتعمق، تود لو تشاطره هذا الذي يتأمله، تود لو يكون لها مثل قلبه، إنها تضحي بالمال والمكانة وهذا الثراء العريض، تجعل نفسها عرضة للإهانة والقذف من السفهاء، وما كان العظماء يتجرأوا على فتح أبواب الحديث معها إلاّ بإذنها لكنها ترضى لا ـ والله ـ من أجل القصر من الذهب، بل لقربها من محمد، لقد تمثلت لها الحياة الأبدية ونعيمها في قربها من محمد صلى الله عليه وسلم.

وها هي خديجة قد أقسمت على الله فأبر قسمها في أعظم الرسل.

أردت لهذه التأملات ألا تطول، وتكون كالبرق الخاطف، بإعطاء لمحة سريعة عن السيدة خديجة. ونخشى أن نقارن بين خديجة وغيرها أقول أخيرًا: إنها وقفت مع

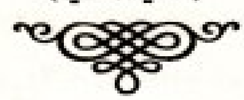
محمد صلى الله عليه وسلم في حربه ضد الشرك بالله، وهكذا كان فؤاد خديجة أول فؤاد خفق إيمانًا بمحمد -صلى الله عليه وسلم، فكان لها على الرجال فضل السبق إلى الإسلام.

ويخرج محمد -صلى الله عليه وسلم- من صمته وعزلته، وينهض برسالته بشيرًا ونذيرًا، فيدعو قومه للحق والخير، وينهاهم عن المنكر والباطل فيستجيب له الضعيف والملهوف، ويتأبى عليه المارد والمكابر، ويمتنع العاتي والماكر ويدرك العقلاء من قريش أن محمدً وإن لم يمسسهم بسوء فإنهم يخشون على المألوف من أوضاعهم وتقاليدهم أن يبدلها دين محمد ويحولها، فهو يدعو إلى المساواة بين الحر والرقيق، وبين الغني والفقير، فكذبوه وعذبوه وخذلوه في دعوته، فما تحرف ولا تخوف وخديجة من ورائه تشد أزره، وتهون عليه ما يلقى من مكروه.

3

امرأة فرعــون

(السيدة آسيا)



هذه المرأة لها الفضل بعد الله في حماية وتنشئة سيدنا موسى -عليه السلام- في بيتها وتربيته على الحكمة بعد أن التقطته من مجرى النيل طفلاً رضيعًا لا حول له ولا قوة، إلا من رحمة الله به وحفظه لحياته بتسخير هذه السيدة المؤمنة لانقاذه ورعايته.

امرأة فرعون اسمها آسيا بنت مزاحم، هذه الشخصية، بالفعل شغلت مكانًا في التاريخ والحضارة، وتعد نموذجًا أنثويًا للإيمان الصادق بالله.

القرآن الكريم أشار إلى حياتها من جانب الإيمان بالله الواحد وكفرها بعبادة فرعون وإذعانها لعبادة الله، وامرأة فرعون من هذه الزاوية امرأة تبدو للنظرة الأولى امرأة تقية نقية، نأت بنفسها عن الكفر، واتجهت صوب طريق الإيمان، هذه هي السيدة آسيا أو امرأة فرعون التي مدحتها الكتب المقدسة، كان مناط الامتداح كله أنها كفرت بعبادة فرعون، وهي تساكنه قصره.

سنرى امرأة شابة قوية البنية، كثيفة الشعر، صلبة الرأي وعريكتها قوية، تقف شامخة بإيمانها، وشتى صنوف الجمال إزاءها تتراجع.

هي ملكة من ملكات البشرية المعدودات، وإن كانت ملكات البشرية يحيين في مملكة تضمهن فهي ولا ريب ملكة على هذه المملكة.

كان فرعون يهابه الناس، والكهنة والقادة والوزراء يسجدون بين يديه، ويؤتى بالرجل فيحيا بكلمة منه أو يموت بكلمة منه، والجيوش تُسَيّر بأمره، والجميع يسجد أمامه ويصدعون بأوامره.

هذه السيدة كفرت به إلهًا، وإن لم تكفر به زوجًا، يستحي النساء ومحرمات بني إسرائيل، أما هي فتفكيرها في أمره، جرها للتفكير فيما عداه، واهتدت بأنه على ضلال ورأت أن للعالمين إلهًا غيره.

لكنّا نعود لنسأل أي إله هذا ؟ وعلى أي دين كانت تدين آسيا ؟ لسنا نعتقد أن آسيا كانت تدين بدين بنى إسرائيل ولا غيرهم. فقط تدين لله مباشرة، دون وحي، بل اهتداء بالفطرة ففرعون معوج وكل اعوجاج عن الاعوجاج استقامة، فالبيئة من حولها منفرة إلاّ من الرجوع إلى الفطرة والتسليم لها، كما قلنا: إنّ كل إنسان في الحياة لديه من الأسباب ما يؤكد له وجود الله، والإذعان لسلطانه، لكن الأمر هنا عند آسيا يزيد عن ذلك، فكما قالوا: "وبضدها تتميز الأشياء"، فكما أنّ الجو المحيط بها كله ضباب وخانق فإنها تتوق نفسها إلى النسيم والكفر بما هي فيه هو الإيمان كله.

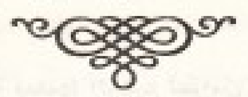
إنّ آسيا لم تزهد، لكنها أرادت إشباع نفس تواقة للحق، ونزعت روحها إلى الإشباع من الحياة والفردوس الدائم، فهي تطلب إلى الله أن يُنجيها من فرعون وعمله وكفره: فهل تخشى بطشه، إن علم بكفرها ؟ هل تخشى أن يعاملها مثل ما عامل بني إسرائيل؟

ليس هذا فحسب، بل هي لا تريد النجاة من فرعون، بل تريد من ربها وهو رب العالمين أن يبني لها قصرًا في الجنة عوضًا عن قصرها المخنوق في رحاب فرعون بالكفر والعتو والفسوق فهي إنما تستبدل ربًا برب، وقصرًا بقصر، لكن مع الفارق: فربها الدنيويّ زيف وتضليل، وقصرها هذا المنيف فاني، أما ربها في السماء فحق، وإحساسها لا يكذبها والقصر في جنته لا فناء يحوم حوله.

4

السيدة عائشة (رضي الله عنها)

(منارة للنساء في العلوم الدينية الإسلامية)



السيدة عائشة -رضي الله عنها- من أمهات المؤمنين، كانت منارة للعلوم الإسلامية بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وذلك لما لهذه الإنسانة من عقل نيّر، وذكاء حاد، وعلم جم. ولدورها الفعال في خدمة الفكر الإسلاميّ من خلال نقلها لأحاديث رسول الله وتفسيرها لكثير من جوانب حياة الرسول -صلى الله عليه وسلم- واجتهاداتها. وهي كذلك المرأة التي تخطت حدود دورها كامرأة لتصبح معلمة أمة بأكملها، ألا وهي الأمة الإسلامية. وفي هذه النقطة البحثية تطرقت إلى ثلاث مجالات تميزت فيهم السيدة عائشة وهي: علمها وتعليمها، السيدة المفسرة المحدثة، السيدة الفقيهة.

وقد اخترت هذه المجالات؛ لأهميتها ولأثرها الواضح في المجتمع والفكر الإسلاميّ، فهي (رضي الله عنها) بعلمها ودرايتها ساهمت بتصحيح المفاهيم، والتوجيه لاتباع سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد كان أهل العلم يقصدونها للأخذ من علمها الغزير، فأصبحت بذلك نبراسًا منيرًا يضيء على أهل العلم وطلابه. ولدت السيدة عائشة بمكة المكرمة في العام الثامن قبل الهجرة.

تعد عائشة (رضي الله عنها) من أكبر النساء في العالم فقهًا وعلماً، فقد أحيطت بعلم كل ما يتصل بالدين من قرآن، وحديث، وتفسير، وفقه. وكانت (رضي الله عنها) مرجعًا لأصحاب رسول الله عندما يستعصي عليهم أمر، فقد كانوا (رضي الله عنهم)

يستفتونها فيجدون لديها حلاً لما أشكل عليهم، حيث قال أبو موسى الأشعريّ: (ما أشكل علينا –أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حديث قط، فسألنا عائشة إلاّ وجدنا عندها منه علماً).

وقد كان مقام السيدة عائشة بين المسلمين مقام الأستاذ من تلاميذه، حيث إنها إذا سمعت من علماء المسلمين والصحابة روايات ليست على وجهها الصحيح، تقوم بالتصحيح لهم وتبين ما خفي عليهم، فاشتهر ذلك عنها، وأصبح كل من يشك في رواية أتاها سائلاً.

لقد تميزت السيدة عائشة بعلمها الرفيع لعوامل مكنتها من أن تصل إلى هذه المكانة، من أهم هذه العوامل:

- **ذكائها الحاد وقوة ذاكرتها**، وذلك لكثرة ما روت عن النبي صلى الله عليه وسلم. زواجها في سن مبكر من النبي صلى الله عليه وسلم، ونشأتها في بيت النبوة، فأصبحت (رضي الله عنها) التلميذة النبويّة. حبها للعلم والمعرفة، **فقد كانت** تسأل وتستفسر إذا لم تعرف أمرًا أو استعصت عليها مسائلة، فقد قال عنها ابن أبي مليكة (كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه إلاّ راجعت فيه حتى تعرفه).

ونتيجة لعلمها وفقهها أصبحت حجرتها المباركة وجهة طلاب العلم حتى غدت هذه الحجرة أول مدارس الإسلام وأعظمها أثرًا في تاريخ الإسلام. وكانت (رضي الله عنها) تضع حجابًا بينها وبين تلاميذها.

لقد اتبعت السيدة عائشة أساليب رفيعة في تعليمها متبعة بذلك نهج رسول الله في تعليمه لأصحابه، من هذه الأساليب: عدم الإسراع في الكلام، وإنما التأني ليتمكن المتعلم من الاستيعاب، كذلك من أساليبها في التعليم، التعليم أحيانًا بالأسلوب العمليّ، وذلك توضيحًا للأحكام الشرعيّة العملية كالوضوء. كما أنها كانت لا تتحرج في الإجابة على المستفتي في أي مسائلة من مسائل الدين، ولو كانت في أدق مسائل الإنسان الخاصة. وبذلك يتضح لنا بأنّ السيدة عائشة (رضي الله عنها) كانت معقلاً للفكر الإسلاميّ، وسراجًا يضيء على طلاب العلم. ولذكائها وحبها للعلم كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبها ويؤثرها.

كانت السيدة عائشة (رضي الله عنها) عالمة مفسِّرة ومحدِّثة، تعلِّم نساء المؤمنين، ويسألها كثير من الصحابة في أمور الدين، فقد هيأ لها الله سبحانه كل الأسباب التي جعلت منها أحد أعلام التفسير والحديث. وإذا تطرقنا إلى دورها العظيم في التفسير فإننا نجد أن كونها ابنة أبو بكر الصديق هو أحد الأسباب التي مكنتها من احتلال هذه المكانة في عالم التفسير، حيث إنها منذ نعومة أظافرها وهي تسمع القرآن من فم والدها الصديق، كما أنّ ذكائها وقوة ذاكرتها كانت سببًا آخرًا.

ومن أهم الأسباب إنها كانت تشهد نزول الوحي على رسول الله، وكانت(رضي الله عنها)تسأل الرسول عن معاني القرآن الكريم وإلى ما تشير إليه بعض الآيات.فجمعت بذلك شرف تلقي القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم فور نزوله وتلقي معانيه أيضا من رسول الله. وقد جمعت (رضي الله عنها) إلى جانب ذلك كل ما يحتاجه المفسر كقوتها في اللغة العربية وفصاحة لسانها وعلو بيانها.

وفي موقف آخر يتضح لنا أنّ السيدة عائشة كانت تحرص على إظهار ارتباط آيات القرآن بعضها ببعض بحيث كانت تفسر القرآن بالقرآن. وبذلك فإنّ السيدة عائشة تكون قد مهدت لكل من أتى بعدها أمثل الطرق لفهم القرآن الكريم. أما من حيث إنها كانت من كبار حفاظ السنة من الصحابة، فقد احتلت (رضي الله عنها) المرتبة الخامسة في حفظ الحديث وروايته، ولكنها امتازت عن الآخرين بأن معظم الأحاديث التي روتها قد تلقتها مباشرة من النبي صلى الله عليه وسلم كما أن معظم الأحاديث التي روتها كانت تتضمن على السنن الفعليّة. وكانت (رضي الله عنها) ترى وجوب المحافظة على ألفاظ الحديث.

ولذلك كان بعض رواة الحديث يأتون إليها ويسمعونها بعض الأحاديث ليتأكدوا من صحتها، كما إنهم لو اختلفوا في أمر ما رجعوا إليها. ومن هذا كله يتبين لنا دور السيدة عائشة وفضلها في نقل السنة النبوية ونشرها بين الناس، ولولا أن الله تعالى أهلها لذلك لضاع قسم كبير من سنة النبي صلى الله عليه وسلم الفعلية.

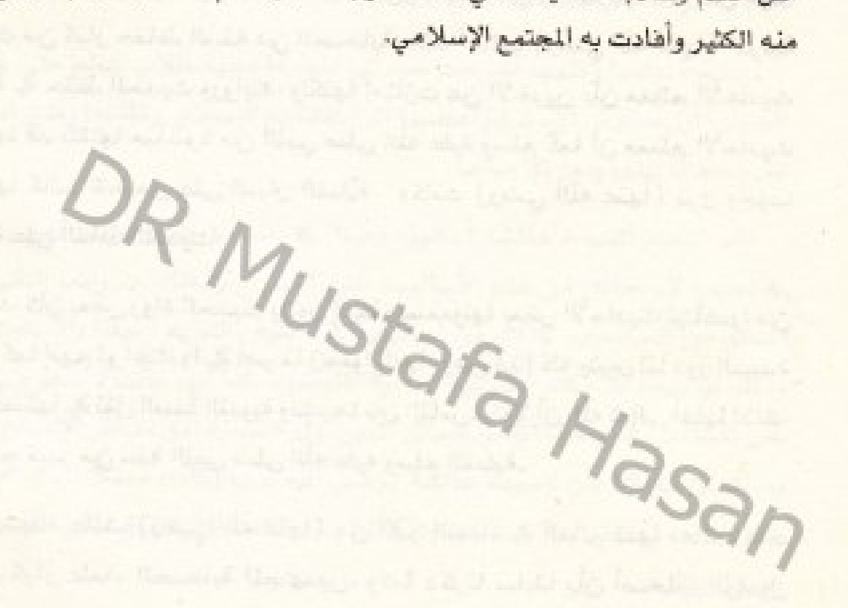
تعد السيدة عائشة(رضي الله عنها) من أكبر النساء في العالم فقهًا وعلماً، فقد كانت من كبار علماء الصحابة المجتهدين، وكما ذكرنا سابقًا بأن أصحاب الرسول

صلى الله عليه وسلم كانوا يستفتونها فتفتيهم، وقد ذكر القاسم بن محمد أن عائشة قد اشتغلت بالفتوى من خلافة أبي بكر إلى أن توفيت، ولم تكتفِ (رضي الله عنها) بما عرفت من النبي صلى الله عليه وسلم وإنما اجتهدت في استنباط الأحكام للوقائع التي لم تجد لها حكمًا في الكتاب أو السنّة، فكانت إذا سئلت عن حكم مسألة ما بحثت في الكتاب والسنّة، فإن لم تجد اجتهدت لاستنباط الحكم، حتى قيل: إنّ ربع الأحكام الشرعية منقولة عنها.

توفيت السيدة عائشة (رضي الله عنها) وهي في السادسة والستين من عمرها، بعد أن تركت أعمق الأثر في الحياة الفقهية والاجتماعية والسياسية للمسلمين، وحفظت لهم بضعة آلاف من صحيح الحديث عن رسول صلى الله عليه وسلم.

لقد عاشت السيدة عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتولت تصحيح رأي الناس في المرأة العربية، فقد جمعت (رضي الله عنها) بين جميع جوانب العلوم الإسلامية، فهي السيدة المفسرة العالمة المحدثة الفقيهة.

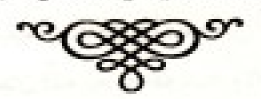
وهكذا فإننا نلمس عظيم الأثر للسيدة عائشة التي اعتبرت نبراسًا منيرًا يضيء على أهل العلم وطلابه، للسيدة التي كانت أقرب الناس لمعلم الأمة وأحبهم، والتي أخذت منه الكثير وأفادت به المجتمع الإسلامي.



5

بلقيس ملكة سبأ

(الملكة اليمنية العظيمة)



المصادر التي أشارت إلى هذه المرأة قد تضاربت أيما تضارب، حتى إنّ البعض قد وضعوا لها قواعد ما، ثم بنوا عليها ما شاءوا، حتى لكأن بعض ما قيل عنها من ضرب الأساطير. زعم بعضهم أنّ بلقيس هي بنت شراحبيل التي ملكت على مملكة سبأ باليمن، أيام نبي الله سليمان.

لكنها وقومها كانوا يعبدون الشمس، كما أخبر هدهد سليمان، والهدهد يتعجب لهذا الأمر، ويرسل الأسئلة الاستنكارية لحالهم، وأوتيت المُلك العظيم، فذهبت إليه بهدية تستكشف بها ذلك الأمر، فلما كشفته واتضح لها صدق ما بلغها عن سليمان، أعطته الهدية وانصرفت لحالها، ففي المصادر الإسلاميّة إلحاح على نبوة سليمان ودعوته وهدهده، إلى التوحيد، وهم قوم يعبدون الشمس من دون الله، فلو أنّ سليمان ملك لفرح بالهدايا وعدّها من قبيل الجزية وهذا ما ذهبت إليه المصادر التوراتيّة.

لكنه نبي لا يقبل الهدايا، الرشاوى، في سبيل دعوته، ويجند الجنود، ويجيش الجيوش، ويُرسل إليها برسالة مع هدهده، وأنّ للكتاب هالة عظيمة فسمته " كتابًا كريمًا".

وقالوا: إنّ قصرها في اليمن كان عظيمًا، وله (٣٦٥) طاقة من الشرق ومثلها من الغرب، بحيث تدخل الشمس منها وتغرب من الناحية الأخرى، كي يسجدوا لها كل يوم في لحظة الإشراق وفي لحظة الأصال، وكأنهم استلهموا طقوس العبادات التي تؤكد

على فرضية الصلوات بالغدو والآصال، ففي المصادر التوراتيّة نجد أنّ بلقيس هي التي ذهبت إلى سليمان ترى وتتيقن من صدق ما سمعته عنه، وهي - إذًا - إنما تزوره زيارة ملوك، وحق على الزائر أن يصطحب معه هدية، ولتكن من ذهب أو ماس أو فضة... الخ، حسب قدرها وقدرتها وقدر سليمان فيما تظنه. أمّا المصادر الإسلاميّة فترينا أنّ سليمان ما كان يسمع عنها ولا يعرف موطنها، لعله لم يكن يظنها امرأة. أمّا الهدهد وهو زعيم الطير كما يقولون، فلقد رأى ذلك - على أنّ البعض من الجغرافيّين مثلاً يرون بون المسافات بين مُلك سليمان وبلقيس أعظم من أن يبلغه الهدهد - لكنّا نقول لقد غاب الهدهد حتى تفقده سليمان فلم يجده فتوعده، ولا بد أن غيابه طويلاً يتناسب مع شيئين:

الأول: طول المسافات وبُعد الممالك.

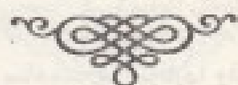
الآخر: تفقد سليمان للطير وما أكثره، ثم إننا لا نعلم متى عاد الهدهد بعد تهديد سليمان وتوعده له.

أما كيفية إعتلاء بلقيس للحكم، فهو إمّا وراثة، أو الكيد، وهناك مئات وصلن لمثل ما وصلت إليه - وليس عندنا من وثائق - حاليًا - للرجوع إليها - ولا يكفينا استبطان ما معنا لفهم علّة ذلك، فلننخلع من أمرها مؤكدين أنها أسلمت مع وليس لسليمان (أي معه وليس له) لأنها ملكة، وحين تسلم فلا تسلم لملك أو حتى نبي بل هي أسلمت لله الواحد القهار، وتلك نبذة بسيطة عن ملكة سبأ وعن الحضارة القديمة للشعب اليمنى والتى تعتبر من أقدم الحضارات المدونة، ويمثلها معمارياً سد مأرب القديم.

6

الملكة زبيدة

(أول مشروع خيريّ دوليّ) ٧٦٢م - ٨٣١م





الملكة زبيدة هي زوجة الخليفة العباسيّ هارون الرشيد الذي شهد عصره أزهى عصور الحضارة والتقدم العلميّ والفكريّ، وهي ابنة عمه وولدت في مكة المكرمة عام ٧٦٢م وكانت من النساء الخيّرات وتحاول دائمًا أن تكمّل مظاهر النهضة الإسلاميّة التي قامت في عصر زوجها ولكنها فكرت أن تأخذ جانب الأعمال الخيريّة والاجتماعيّة والإنسانيّة كما نرى نساء العصر الحاضر من زوجات فخامة الرؤساء والملوك.

وعندما سُئلت عن سر اهتمامها بهذه الأعمال قالت: "الرجال مشغولون بالحروب وبالسياسة وعلى النساء أن يعملن في مثل هذه النشاطات.

كانت الملكة زبيدة أول مَا تزوجت من الخليفة هارون الرشيد ظلّت لا تنجب فترة طويلة ونذرت لله إن أنجبت ستعمل عملاً خيرياً كبيرًا يفيد المسلمين والناس أجمعين، وقد لبّى الله رجاءها وأعطاها ابن هو الأمين ابن الرشيد، فأوفت بوعدها وقررت إنشاء طريق بطول ٩٠٠ كيلو متر لخدمة الحجاج والمسافرين والمعتمرين إلى مكة المكرمة، وكانت بدايته من الكوفة بالعراق، ولم تكتفي بشق هذا الطريق الطويل الذي تكلّف في تلك الآونة مليون دينار ذهبيّ ساهمت هي بحليها وذهبها ودعت القادرين من أهل الخير للإسهام معها، وحيث إن هذا الطريق الطويل يمر عبر رمال الصحراء الجدباء المقفرة أمرت بحفر ينابيع للمياه وإنشاء إحدى عشر موقفًا مزودة باستراحات ومصدر للمياه العذبة، وكانت المسافات بين الاستراحات تبعد اثنى عشرة ساعة سيرًا فقط، وقد أتاح هذا العمل للحجاج الفرصة للراحة، وأنشأت محطات يمكن حفظ الزائد عن احتياجاتهم من المؤن والمتاع والدواب والعلف في تلك الأماكن حتى يستعينوا بها في رحلة العودة إلى العراق بدلاً من أن يحملوها معهم إلى مكة المكرمة بما في ذلك من إجهاد عليهم وزحام في الأراضي المقدسة، وهنا يتبينّ لنا عظمة الفكر أثناء عمل الخير.

سمي هذا الطريق بدرب زبيدة تشريفًا لها وعرفانًا بهذا العمل الجليل، وبالذات عندما أمرت أيضًا بإنشاء قناة "عين المشاش" لجلب المياه من مسافة ١٧ كيلو متر من الينابيع إلى مكة المكرمة لسقاية الحجيج، وأنشأت أسبلة للشرب والوضوء وخزّانات للمياه في منى وعرفات، ومن عبقريّة تلك السيدة أنها بعد أن أكملت تلك المشاريع من مالها الخاص ومن أموال المتبرعين والمساهمين معها، فكّرت أن تلك الأعمال تحتاج إلى صيانة دوريّة عدة مرات سنوياً حتى تستمر على أداء نفس الدرجة من الخدمة بعد وفاتها، فرصدت أربعون ألف دينار سنوياً للقائمين على الصيانة وحراسة الطريق والحفاظ على الآبار المحفورة قابلة للاستخدام المستمر، وذلك مَا حدث فعلاً، واستمر هذا الطريق المعروف بدرب زبيدة وسميت أيضًا على اسمها مدينتين في كلٍ من العراق وبلاد فارس في تلك الآونة، واستحقت أن تُلقب بأم الفقراء، حيث نفّذت أول مشروع خيريّ جماعيّ في التاريخ استفاد منه ملايين الحجاج المسلمين وملايين من غيرهم من الدول المحيطة بهم، وأصبح اسمها مشرقًا بين الفاضلات من المسلمين بعطائها.

9

الأميرة فاطمة إسماعيل

(أميرة بلا مجوهرات)



هذه السيدة هي صاحبة أول تبرع نسائيّ عربيّ لبناء أول جامعة في إفريقيا وفي مصر.

الأميرة فاطمة ابنة الخديوي إسماعيل هي إحدى نساء الأسرة العلويّة التي بدأت حكم مصر منذ عام (١٨٠٥م) بقيادة الوالي محمد علي باشا الكبير مؤسس نهضة مصر الحديثة. تزوجت الأميرة فاطمة من الأمير طوسون باشا ابن الوالي سعيد باشا، وقد ورث عنها ابنها الأمير عمر طوسون بعض من صفاتها مثل حب العلم وتشجيع العلماء ورعاية الثقافة والفنون والتاريخ وأهدى قصرُه وتحفه هبة للفن.

كانت فكرة إنشاء جامعة مصريّة خالصة قد تواترت وظهرت لدى المصريين الذين ابتعثوا للخارج أيام الوالي محمد علي ومن بعده الخديوي العظيم إسماعيل باشا، وعندما عادوا إلى مصر تحدثوا كثيرًا عن التقدم والرقي الذي لمسوه في الجامعات الأوربية وعدد الكليات التي تحويها كل جامعة في تلك البلاد، وبدأ الحديث أنّ مصر إذا أرادت الالتحاق بركب الحضارة الحديثة والعلوم والفنون يجب أن تبدأ في إنشاء جامعة، وزاد الحس الوطنيّ تجاه ذلك عندما بدأت الصحف والمجلات تنشر أحاديث هؤلاء المبعوثين بعد عودتهم، وبدأ الحديث عن عملية اكتتاب كبيرة يقوم بها المصريون الأثرياء وكافة طبقات الشعب لإنشاء جامعة مصريّة، وذلك لأنّ شخص واحد أو جماعة واحدة أو الحكومة المصريّة نفسها لم تكن تقدر على تدبير تلك المبالغ الباهظة لإنشاء جامعة، وكان أول اجتماع لذلك المشروع في بيت سعد زغلول بك المستشار بمحكمة الاستئناف (الزعيم سعد زغلول فيما بعد) وما لبثت التبرعات أن تدفقت بحماس وهمة عظيمة وعزم لا يلين من أحفاد الفراعنة، أعلن الخديوي عباس حلمي الثاني أنّ مشروع إنشاء الجامعة المصريّة سيكون تحت رعايته وتفضل قاسم بك أمين في يناير (١٩٠٧م) في الترتيب لبدء التنفيذ وتوالت التبرعات من أثرياء مصر ومن أمراء الأسرة العلويّة أيضًا، واختار الجميع بما فيهم الخديوي عباس حلمي الثاني الأمير فؤاد الأول رئيسًا للجنة إدارة الجامعة.

افتتحت الجامعة في (٢١ ديسمبر (١٩٠٨م) وحضر الافتتاح الخديوي والأمير أحمد فؤاد وبعض من المتبرعين وجميع رجال الدولة والأعيان ولكن كان المبنى الذي تُباشر منه الجامعة دورها مؤجّراً، والمصاريف اللازمة للأساتذة المصريّين والأجانب وإيجار المكان لا تتناسب مع المبالغ المحصلة من الطلبة الدارسين، مما أدى إلى عجز ماليّ في ميزانيّتها وبدأ هذا العجز يتزايد سنة بعد أخرى حتى بعد زيادة المصروفات على الطلبة وتقليل مرتبات أعضاء هيئة التدريس وبدلات السفر لأوروبا لهم (برغبة وموافقة أعضاء هيئة التدريس حماسًا منهم لإنجاح الجامعة) وكادت الدراسة أن تتوقف عام (١٩١٢م) نتيجة العجز الماليّ حتى بعد أن تدخلت الحكومة بإعانة مقدارها ألف جنيهًا مصرياً، وهنا ظهرت الشخصيّة العظيمة في حب مصر بالأفعال وليس بالأقوال والأغاني، وهي الأميرة فاطمة إسماعيل فمنحت قطعة أرض من ممتلكاتها في منطقة الجيزة للجامعة حتى يقام عليها مبنى خاص للجامعة بدلاً من الإيجار (جامعة القاهرة الآن) وأوقفت

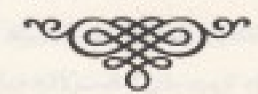
(٦٦٠ فدانًا) من أراضيها الزراعيّة لينفق من ريعها لتغطية نفقات استمراريّة العمل في الجامعة آنذاك ولتغطية جزء من نفقات إنشاء المباني الجديدة، وتطوع المهندسون المصريّون المشهود لهم بالكفاءة في ذلك المجال بعمل الرسومات والتصميمات مجانًا لخدمة الوطن، بعد أن حفّزهم التبرع السخي للأميرة فاطمة إسماعيل وتم وضع حجر الأساس على الأرض التي وهبتها الأميرة فاطمة إسماعيل في (٣١ مارس ١٩١٤م) بحضور الخديوي عباس حلمي والأمير أحمد فؤاد والأمراء وشيخ الأزهر وبطريرك الكنيسة الأرثوذوكسيّة المصريّة والعلماء والأدباء وقناصل الدول والصحفيّين، ووضع مع حجر الأساس محضر توقيع الإنشاء موّقع من كل من الخديوي عباس والأمير فؤاد وصاحبة العظمة المحسنة الكبيرة الأميرة فاطمة، وبدأت عملية البناء الحقيقية فتبرعت الأميرة فاطمة بكل ذهبها وحليها ومجوهراتها البالغ ثمنها (٢٦ ألف جنيه) لتكاليف الإنشاء مبدئيًا وعند بيع تلك المجوهرات والحلي بلغ ثمنها (٧٠ ألف جنيه) استغل ثمنها في الإنشاءات، وأصبحت أميرة بلا مجوهرات ولكنها أميرة العطاء والمبادرة الجريئة التي أقامت أول جامعة في إفريقيا للعلوم الحديثة وهي الجامعة المصريّة، والتي لم يطول بها العمر ولم يمهلها القدر لترى صرح مبنى الجامعة بقبتها الشهيرة وقد شُيد وتوفيت إلى رحمة الله قبل انتهاء العمل بالإنشاءات ببضع سنوات.

11

الدكتورة زهيرة عابدين

(أم الأطباء المصريين ورائدة الطب الاجتماعي)

(١٩١٧)-(٢٠٠٢)م





هذه الأم الحنون بهرتني بكل ما فيها من علم ودين وأخلاق وعطاء وجديّة وتَعَامَلتُ معها شخصياً كأستاذة لي في علم الأطفال بكليّة الطب وجارة لي في العمارة لمدة عشرين عامًا وقدوة لي في كل شيء صحيح.

حملت الأستاذة الدكتورة زهيرة عابدين لقب أم الأطباء المصريّين من السيدة الفاضلة سوزان مبارك حرم رئيس الجمهوريّة، وهو أشرف تقدير لطبيب في مصر، وكان ذلك لفتة جميلة وراقية وتقديرًا في مكانه ولمن يستحقه من السيدة سوزان مبارك

لرحلة عطاء سيدة من سيدات مصر استمرت تعطي بسخاء وحماس دون كلل ودون دعاية لمدة ستين عامًا، فمن تكون هذه السيدة العظيمة؟

ولدت الأستاذة الدكتورة زهيرة عابدين بالقاهرة عام (١٩١٧م) وكان والدها من الرعيل الأول الذين درسوا القانون في فرنسا، وأصبح عضوًا بمجلس الشيوخ المصريّ. وقد توفيت والدتها وكان عمر الدكتورة زهيرة ثلاثة أعوام فقط، فنشأت طفلة يتيمة الأم، ولعلّ هذا ما دفعها إلى الاهتمام باليتامى والأطفال والتقرب إلى الله -تعالى- من خلال دراسة الطب وتطبيقه على خدمة الأطفال المحتاجين لرعاية صحيّة واجتماعيّة وعلميّة ولذا نجحت في الثلاث مجالات خلال مسيرة حياتها التي جاوزت أربعة وثمانين عامًا بتوفيق وهداية من الله لها، ذلك لأنّ أفكارها كانت نبيلة وكانت تبحث بنفسها عن المستحق لخدماتها وتوفر له سبل الوصول إلى غايته من ملجأ أو مدرسة أو مستشفى وأنفقت أموالها في ذلك المضمار.

بدأت الدكتورة زهيرة عابدين رحلة تفوقها بأن كانت متفوقة في الدراسة الثانوية بمدرسة الأميرة فوزية للبنات، ولا ننسى تشجيع ومؤازرة ناظرة المدرسة لها، المعلمة الفاضلة السيدة أنصاف سري زوجة منصور باشا فهمي أحد رجال التعليم بمصر، حيث إنّها كانت تقيم لها حفلات التفوق والنبوغ وتعطيها شهادات التقدير وجائزة ماليّة عند كُل نجاح.

كانت الأولى على امتحان البكالوريا (الثانويّة العامّة الآن) على مستوى المملكة المصريّة عام (١٩٣٦)م)، وذلك كان لأول مرة أن تحصل فتاة على المركز الأول بتلك الشهادة، والتحقت بكليّة الطب جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليًا) عام (١٩٣٦م) وتحكي الدكتورة زهيرة عابدين أنّ من محفزات التفوق فيما بعد في كليّة الطب أن أستاذها في الكيمياء أ.د. نظيم فاخوري (قدّس الله روحه) جعل أول محاضرة في العام الدراسيّ الجديد بالكليّة درسًا عن نبوغ وتفوق الطالبة زهيرة عابدين، الأستاذ فاخوري اعتبرها نموذجًا جديدًا للفتاة المصريّة، واعتبرت هي كلمات الأستاذ عنها الدفعة الأولى في حياتها الجامعيّة لبدأ المسيرة التي تتمناها لحياتها، وكذلك أرسل العالم المصريّ العظيم الأستاذ الدكتور مصطفى مشرفة عميد كليّة العلوم (حيث دراسة السنة الإعدادية لطلبة كليّة الطب) خطابًا إلى والدها حافظ بك عابدين يثني

فيه عليها وعلى تفوقها في الدراسة، ولكي يحاول أن يقنعها بالتحويل إلى كليّة العلوم لما ينتظرها من مستقبل باهر، ولكنها أبت إلاّ أن تكون طبيبة.

تخرجت في كليّة الطب بامتياز مع مرتبة الشرف، وكانت الأولى على دفعتها وتخصصت في طب الأطفال وتبناها علمياً أستاذنا المرحوم أ.د. أحمد خليل عبد الخالق، ولكن رفضت كليّة الطب تعيينها معيدة أطفال رغم حصولها على دبلوم الأطفال، فطلبت إجازة للسفر إلى إنجلترا لدراسة زمالة الكليّة الملكيّة البريطانيّة ونجحت في الحصول على درجة الزمالة البريطانيّة بتفوق وخلال تلك الفترة تزوجت من أستاذنا الفاضل أ.د. محمد عبد المنعم أبو الفضل المعيد بكلية الصيدلة بجامعة القاهرة الذي حصل هو بدوره على الدكتوراه في علم التحاليل واكتشف الأنزيم المسئول عن تضخم البروستاتا وسُجل براءة هذا الكشف باسمه في المراجع الطبيّة العالميّة بإنجلترا عام (١٩٤٨م).

عادت الدكتورة زهيرة عابدين إلى مصر، ولكن الجامعة رفضت تعيين عضو هيئة تدريس من النساء ووقف بجانبها أساتذتها بكليّة الطب حتى تم تعيينها لتكون أول عضو هيئة تدريس بالجامعة من السيدات.

عام (١٩٥٣م) لاحظت زيادة معدل الإصابة بمرض روماتيزم القلب بين الأطفال في مستشفى أبو الريش وفي مصر عمومًا. فقررت أن تتخصص في طب القلب للأطفال وذهبت لإنجلترا لدراسة ذلك في عامين.

بعد أن عادت من انجلترا وفي عام (١٩٥٧م) أغلقت عيادتها الخاصّة وتفرغت لعلاج المرضى من الأطفال بمستشفى أبو الريش وهالها عدد الأطفال المصابين بروماتيزم القلب وضيق وارتخاء صمامات القلب المترتبة على المرض، وبدأت في علاجهم وتحضيرهم لعمل العمليّات الجراحيّة اللازمة لهم، وأنشأت قسماً لتوعية الأهل بكيفيّة الوقاية من الإصابة بالمرض ثم أنشأت جمعيّة خيريّة في فيلا بالهرم لتصبح مركزًا لعلاج أمراض روماتيزم القلب وبدأت في جمع التبرعات وساعدتها محافظة الجيزة بأن أعطتها قطعة الأرض اللازمة لبناء مستشفى روماتيزم القلب للأطفال بسعة (٤٠٠ سرير) وكان ذلك في خمسينات القرن الماضي، وقد تبرعت السيدة أم كلثوم بعمل عدة حفلات خيريّة لصالح المستشفى. وعندما زار المستشفى عميد كليّة الطب في نيويورك

وكان أستاذًا للقلب بكى من شدة التأثر وقال: لو كان في العالم عشرون طبيبًا مثل أ.د. زهيرة عابدين يعملون بهذه الروح لأصبح العالم سعيدًا، ودعمها ببعض من المساعدات والأجهزة اللازمة للمعهد.

جذبها العمل الاجتماعيّ التطوعيّ لإنجاز المزيد، فأنشأت معهد صحة الطفل في الثمانينات بمنطقة الدقي بالجيزة على نفقتها الخاصّة ومن ميراثها من والدها ومن تبرعات أهل الخير، وهو مبنى عبارة عن عشرة طوابق وبه مستشفى ودار حضانة ودار لرعاية المسنين ثم أنشأت بمدينة (٦ أكتوبر) داراً لرعاية الأطفال اللقطاء وتعليمهم ثم توفير فرص العمل الحرفي لهم، وأقامت مشغلاً في حي الحسين وبيتًا للطالبات المغتربات، ومدرسة ثانويّة بمحافظة السويس، ثم أنشأت مدارس الطلائع للغات بمنطقتي المهندسين ومصر الجديدة، وخلال تلك المسيرة في التعليم لاقت الدكتورة زهيرة عابدين التعاون الكامل من وزراء التربية والتعليم الذين تولوا هذا المنصب خلال ثلاثين عامًا، ذلك لأنّ غرضها كان إظهار أهميّة ارتباط التعليم بعطاء وتعاون الأفراد والمجتمع المدنيّ والحكومة، ولذلك كرمتها السيدة سوزان مبارك بأن أطلقت عليها لقب أم الأطباء المصريّين وهو تكريم يدل على حُسن تقدير السيدة سوزان مبارك لمن أبلى بلاءً حسنًا في خدمة المجتمع المصريّ، وقبل ذلك كرمها السيد الرئيس المرحوم أنور السادات في مناسبة مرور (١٥٠ عامًا) على إنشاء كليّة الطب وكرمتها نقابة أطباء مصر وأهدتها درع النقابة العامّة، وحصلت على جائزة إليزابيث نورجال من نادي النساء في ألمانيا، وكانت أول سيدة من خارج أوروبا تحصل على تلك الجائزة، ومُنحت الدكتوراه الفخرية من جامعة أدنبرة بالمملكة المتحدة عام (١٩٨٠م) وكانت أول طبيبة في العالم العربي تحصل عليها والعضويّة الفخريّة من الجمعيّة الطبيّة الملكيّة، وتم تأسيس كرسي دراسي باسمها في جامعة العلوم الإسلاميّة والاجتماعيّة في ولاية فرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكيّة بواسطة عميد الكليّة أ.د. طه جابر العلواني زوج ابنتها الكبرى المرحومة أ.د. منى عبد المنعم أبو الفضل الأستاذة بكلية السياسة والاقتصاد بجامعة القاهرة.

وقد كان لي في حياتي شرف مقابلتها كثيرًا حيث إنّها وأولادها الأربعة الذين تبوءوا أعلى المناصب الجامعيّة في مصر بعد حصولهم على درجة الدكتوراه مثلها يسكنون

معي في نفس العمارة، وكان لي أيضًا لقاءات معها في أثناء عملي بالخارج، وسألتها عن سر عطفها الزائد والحنان الذي تفيض به على الأطفال والكبار فقالت لي: ربما لأنني فقدت والدتي وعمري ثلاث سنوات، وربما بدافع الرحمة المتولدة من حبي لله عز وجل، فالطفل بريء دائمًا وضعيف والعناية به هي أول درجة في سلم بناءه على تعاليم الإسلام الحقيقيّة المبنيّة على الأخلاق والخير والتسامح الصادق، ولم تنس أنّ العون كان من الله أولاً ومن زوجها الفاضل أستاذنا أ.د. عبد المنعم أبو الفضل الذي شجعها على بلوغ طموحاتها العلميّة والاجتماعيّة والخيريّة، وبذل من ماله الخاص كثيرًا في مشروعاتها وكنت شاهدًا على ذلك في بعض مشروعاتهم -رحمهما الله- وسدد خطى أحفادهم وأبنائهم الذين تولوا إدارة تلك الأعمال الخيريّة.

وتوفيت أستاذتنا وقدوتنا الأستاذة الدكتورة زهيرة عابدين عام (٢٠٠٢م) بمنزلها في هدوء وصمت العظيمات.

وكنت أنا وأبنائها حولها أثناء الوفاة -رحمها الله. وقد كرمتها الدولة بعد وفاتها، بأن أطلق مسئولو محافظة الجيزة وعلى رأسهم الوزير المحافظ سيادة المستشار "محمود أبو الليل" اسمها على إحد شوارع محافظة الجيزة بميدان المساحة بالدقي وهو نفس الشارع الذي تبرعت بإنشاء مستشفى ومركز صحة الطفل به، جزاها الله كل خير عمّا أنجزته للمجتمع المصريّ والعربيّ في الطب والعلم والعطاء.

وهكذا كما كانت أول طالبة تدرس مهنة الطب في التاريخ في مدرسة هليوبوليس الفرعونيّة الطبيّة طالبة مصريّة عام (١٥٠٠) قبل الميلاد) كما ذكرت دائرة المعارف البريطانيّة، أصبحت الأستاذة الدكتورة زهيرة عابدين أول أستاذة طب جامعيّة في مصر والعالم العربيّ وأفريقيا.

13

السيدة فاطمة الفهرية

(مؤسسة أول جامعة إسلامية في المغرب)

فاطمة بنت محمد بن عبدالله الفهريّ، تُلقَّب أيضًا بأم البنين، هي شخصيّة تاريخيّة خالدة في ذكريات مدينة فاس والتاريخ المغربيّ ككل. كان من ضمن المهاجرين إلى فاس رجل عربيّ من القيروان اسمه محمد بن عبد الله الفهريّ، كان ذا مال عريض وثروة طائلة، ولم يكن له من الأولاد سوى بنتَينِ هما: فاطمة ومريم، أحسن تربيتهما واعتنى بهما حتى كبرتا. فلما مات ورثته ابنتاه ورأتا ضيق المسجد بالمصلين، أحبتا أن تخلدا ذكرى والديهما بخير ما درج عليه المسلمون باتخاذ المساجد سلمًا للمجد. عمدت فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهريّ إلى مسجد القرويين فأعادت بناءه مما ورثته من أبيها في عهد دولة الأدارسة في رمضان من سنة ٢٤٥هـ.

إنّ "حفر أساس مسجد القرويين والأخذ في أمر بنائه الأول كان بمطالعة العاهل الإدريسيّ يحيى الأول، وإنّ أم البنين فاطمة الفهريّة هي التي تطوعت ببنائه وظلّت صائمة محتسبة إلى أن انتهت أعمال البناء وصلّت في المسجد شكرا لله".

فاطمة بنت محمد الفهريّ، تكنى بأم البنين، وعرفت بأم البنين الفهريّة، نزحت وهي فتاة صغيرة مع العرب النازحين إلى أقصى المغرب ونزلت مع أهل بيتها في عدوة القرويين زمن حكم إدريس الثاني، حتى تزوجت وطاب لها المقام هناك.

أصاب أهلها وزوجها الثراء من مال حلال بعد كدّ وتعب واجتهاد وعمل، ولم يمض زمن طويل حتى انتقل زوجها إلى رحاب ربه، ثم مات والدها فورثت عنهما مالاً كثيرًا شاركتها فيه أخت لها هي مريم بنت محمد الفهريّ التي كانت تكنى بأم القاسم.

ولم تزل أم البنين تفكّر في أمرها حتى هداها تفكيرها إلى ضرورة استثمار هذا المال استثمارًا حقيقيًا، تحركت في دواخل ضميرها المؤمن الحي الذي بني على دعائم إسلامية خالصة لما تميزت به صاحبته من زهد وتقوى وورع، وعقدت العزم على بناء مسجد يكون ذخرًا لها بعد موتها وصلة بينها مع أهل الدنيا وليظل عملها بعد موتها مستمرًا، عملاً بقول المصطفى الهادي -صلوات الله وسلامه عليه: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له".

وبدأت فاطمة بنت محمد الفهري في اتخاذ الخطوات الأولى في البناء واشترت أرضًا بيضاء بالقرب من منزلها بالقرويين ودفعت لصاحبها بسخاء حتى إذا شرعت في البناء عقدت العزم على ألاّ تأخذ ترابًا أو مواد بناء من غير الأرض التي اشترتها بحر مالها، وطلبت من عمّال البناء أن يحفروا حتى أعماق الأرض المزمع إقامة البناء عليها فأخذوا يستخرجون من أعماقها الرمل الأصفر الجديد والأحجار والجص ليستخدموه في البناء، وهي بذلك تهدف إلى عدم وجود أي شبهة تشوب مشروع تشييد البناء في المسجد، ومع أول أيام البناء أصرّت على بدء الصوم، ونذرت ألاّ تفطر يومًا حتى ينتهي العمل فيه.

بدأ الحفر في صحنه لإنشاء بئر من أجل شرب البنائين ولاستخدام الماء أيضًا في أعمال البناء، ثم عمدت بعد ذلك في حفر بناء أساس وجدران المسجد وقامت بنفسها بالإشراف على أعمال الأساسات والبناء، فجاء المسجد فسيح الأرجاء محكم البناء، وكأنّ فاطمة عالمة بأمور البناء وأصول التشييد لما اتصفت به من مهارة وحذق فبدا واضحًا شكل المسجد في أتم رونق وأزهي صورة وأجمل حال وبهاء، حتى إذا انتهي العمل وتم البناء كان أول رمضان (سنة ٢٤٥) من الهجرة فصلّت فاطمة صلاة شكر لربها علي فضله وامتنانها لكريم رزقه وفيض عطائه الذي وفّقها لبناء هذا الصرح الذي عرف بمسجد القرويين.

قال عنها عبد الرحمن بن خلدون: "فكأنما نبهت عزائم الملوك بعدها، وهذا فضل يؤتيه لمن يشاء من عباده الصالحين، فسبحانه وتعالي إذا أراد لأمّة الرقي والرفعة وأذن لها بالسعادة الغامرة أيقظ من بين أفرادها رجالاً ونساءً، شبابًا وشيوخًا، أيقظ فيهم وجدانًا شريفًا، وشعورًا عاليًا يدفعهم للقيام بصالح الأعمال وأشرفها وما كان من أجل الدنيا والآخرة."

ومثلما نحتت فاطمة بنت محمد الفهريّ هذا العمل سبيلاً، نجد أختها مريم - أم القاسم - تمشي على نفس الدرب فأنشأت مسجدًا عرف باسم جامع الأندلس.

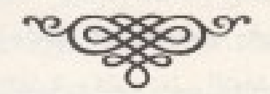
ولا زال جامع القرويين إلى جوار جامع الأندلس يؤديان الدور المنوط بهما في نشر الإسلام والعلوم. وكانت نيّة أم البنين صادقة لوجه الله تعالى. وفي بناء مسجد أسس على الصدق والتقوى والضمير الحي فأضحى مسجدًا للورع والصلاح، وأصبح جامع القرويين الشهير أول معهد ديني وأكبر كليّة عربيّة في بلاد المغرب الأقصى.. ويعد بعض المؤرخين هذا الجامع أول جامعة عربية إسلامية في البلاد المراكشيّة، وبذلك تصبح السيدة فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني المعروفة بأم البنين الفهريّة هي مؤسسة أول جامعة عربيّة إسلاميّة في هذه البلاد، وماتت السيدة فاطمة نحو عام (٢٦٥ هـ / ١١٨٠ م).

21

أم كلثوم

(الملكة التي توجها العرب عليهم)

(١٨٩٨)-(١٩٧٥)





"كوكب الشرق" هو الاسم المتداول بين العرب على السيدة أم كلثوم، وذلك لما وصلت إليه من القمة في العطاء الفني والإنساني والأدبي خلال حياتها التي امتدت لما يقرب من سبعة وسبعين عامًا، ولكنني رأيت أن أطلق عليها لفظًا مستعارًا من الحياة السياسية وهو غير موجود حقيقة في واقعنا الفعليّ وهو "ملكة العرب التي توجها العرب عليهم برغبتهم"، وذلك لأن الملكات دائمًا محبوبات من قبل شعوبهن، وذلك ما رأيته في

التاريخ، وحيث إن السيدة أم كلثوم هي الشخصية العربية الوحيدة التي اتفق على حبها جميع العرب بلا استثناء في القرن العشرين، **فلماذا لم تكن نطلق عليها هذا الاسم أثناء حياتها؟!**

ولدت السيدة أم كلثوم في قرية "طماي الزهايرة" مركز السنبلاوين بمديرية الدقهلية يوم (٣٠ ديسمبر ١٨٩٨م) وهي مدينة تقع في وسط الدلتا بمصر، تلقت تعليمها الأولي بقريتها وحفظت القرآن الكريم في كُتاب القرية على يد شيخًا جليلًا وذلك هو ما جعل من نطقها ولغتها العربية سليمة وقوية، وكانت قوية العزيمة وذكية وصاحبت والدها في جولاته الفنية، وكانت تغني التواشيح الدينية في الموالد والأفراح ولم تخفي أنها كافحت في أولى مراحل حياتها ولم تكن ترتدي زي البنات في أول مراحل صعودها الفني بالأرياف؛ بل كانت ترتدي زي الصبية من الأولاد، ولم يحدث في حياتها أن سافرت بمفردها لتحيي أي حفل أو مولد أو مناسبة بل كانت تسافر برفقة والدها وشقيقها حتى عندما جاءت للقاهرة.

كانت السيدة أم كلثوم عالية الثقافة وقارئة للشعر وللأدب، ولذلك كان فنها راقيًا من بداية حياتها، ولم تبتذل نفسها في الغناء في المراقص والكباريهات وأماكن تقديم الطعام والخمور عندما حضرت إلى القاهرة في العقد الثالث من القرن العشرين.

وفي عام ١٩٢٢م جاءت أم كلثوم مع والدها وابن عمها صابر إلى القاهرة بحثًا عن مساحة انتشار أكبر وأوسع للعائلة عامة وأم كلثوم بصفة خاصة، بدأت العائلة عملها بقيادة الشيخ إبراهيم البلتاجي في المحلات والكازينوهات التي تتميز باستقبال الرواد المتذوقين للفن الهادف والراقي المستوى، وبمرور الوقت بدأت أم كلثوم تغني بمفردها بدون "بطانة"، وتعرفت على الشيخ أبو العلا محمد أحد رواد الموسيقى والتلحين آنذاك فكان نقطة تحول في مسيرتها، إذ عرفت على يديه أصول وقواعد الغناء بشكل سليم وقام بتلقينها المبادئ الأولى لفن الموسيقى، ولحن لها ٩ أغاني وهي الأغاني التي كانت نقطة تحول هامة في مشوارها مثل "الحب تفضحه عيونه" كلمات الأستاذ أحمد رامي الذي تشرفت بالتعرف على إبنه المهندس توحيد رامي فى مهرجان تكريم الأستاذ أحمد رامى عام ٢٠٠٩ فى مهرجان الفيديو كليب.

التاريخ، وحيث إن السيدة أم كلثوم هي الشخصية العربية الوحيدة التي اتفق على حبها جميع العرب بلا استثناء في القرن العشرين، **فلماذا لم تكن نطلق عليها هذا المسمى أثناء حياتها؟!**

ولدت السيدة أم كلثوم في قرية "طماي الزهايرة" مركز السنبلاوين بمديرية الدقهلية يوم (٣٠ ديسمبر ١٨٩٨م) وهي مدينة تقع في وسط الدلتا بمصر، تلقت تعليمها الأولي بقريتها وحفظت القرآن الكريم في كُتاب القرية على يد شيخًا جليلاً، وذلك هو ما جعل من نطقها ولغتها العربية سليمة وقوية، وكانت قوية العزيمة وذكية وصاحبت والدها في جولاته الفنية، وكانت تغني التواشيح الدينية في الموالد والأفراح، ولم تنفي أنها كافحت في أولى مراحل حياتها ولم تكن ترتدي زي البنات في أول مراحل صعودها الفني بالأرياف؛ بل كانت ترتدي زي الصبية من الأولاد، ولم يحدث في حياتها أن سافرت بمفردها لتحيي أي حفل أو مولد أو مناسبة بل كانت تسافر برفقة والدها وشقيقها حتى عندما جاءت للقاهرة.

كانت السيدة أم كلثوم عالية الثقافة وقارئة للشعر وللأدب، ولذلك كان فنها راقي من بداية حياتها، ولم تبتذل نفسها في الغناء في المراقص والكباريهات وأماكن تقديم الطعام والخمور عندما حضرت إلى القاهرة في العقد الثالث من القرن العشرين.

وفي عام ١٩٢٣م جاءت أم كلثوم مع والدها وابن عمها صابر إلى القاهرة بحثًا عن مساحة انتشار أكبر وأوسع للعائلة عامة وأم كلثوم بصفة خاصة، بدأت العائلة عملها بقيادة الشيخ إبراهيم البلتاجي في المحلات والكازينوهات التي تتميز باستقبال الرواد المتذوقين للفن الهادف والراقي المستوى، وبمرور الوقت بدأت أم كلثوم تغني بمفردها بدون "بطانة"، وتعرفت على الشيخ أبو العلا محمد أحد رواد الموسيقى والتلحين آنذاك فكان نقطة تحول في مسيرتها، إذ عرفت على يديه أصول وقواعد الغناء بشكل سليم وقام بتلقينها المبادئ الأولى لفن الموسيقى، ولحن لها ٩ أغاني وهي الأغاني التي كانت نقطة تحول هامة في مشوارها مثل "الحب تفضحه عيونه" كلمات الأستاذ أحمد رامي الذى تشرفت بالتعرف على إبنه المهندس توحيد رامى فى مهرجان تكريم الأستاذ أحمد رامى عام ٢٠٠٩ فى مهرجان الفيديو كليب.

نظرًا لجمال صوتها وتمكنها الجيد من اللغة العربية التف حولها مجموعة من مبدعي الكلمة والشعراء مثل الأستاذ أحمد رامي، الأستاذ عبد الفتاح مصطفى، الأستاذ عبد الوهاب محمد والأستاذ بيرم التونسي، والأستاذ أحمد فتحي، حيث وجدوا من تليق بغناء كلماتهم الرائعة. وأيضًا وجد شعراء لبنان والسودان وسوريا وباكستان والسعودية غايتهم في أن يعرف كافة العرب أشعارهم وتزيد الروابط الفنية بين الدول العربية. وهكذا نرى أنها كانت أول رباطًا فنيًا بين العرب. كذلك وجد ملحني القرن العشرين غايتهم في سيدة عظيمة وذكية تتفهم أصول اللحن والكلمة وترفض المُثير من الألحان والألفاظ التي تجذب وتُغري العامة من البسطاء، فالتف حولها هؤلاء العمالقة وأولهم الأستاذ محمد القصبجي، ثم الأستاذ رياض السنباطي الذي قدم أروع ما عنده من ألحان ليُخرج من أم كلثوم أروع ما لديها من أشجان وعذوبة وفن راقي، ثم الأستاذ محمد الموجي والأستاذ كمال الطويل والأستاذ بليغ حمدي والشيخ سيد مكاوي والأستاذ محمد عبد الوهاب، الذي قدم لها بعضًا من أجمل ألحانه، وهكذا كان لأم كلثوم دورًا بارزًا وهامًا في الارتقاء بالذوق الفني لكافة الشعوب العربية.

لم تكن السيدة أم كلثوم فنانة فقط، ولكن الوجه المُشرق في حياتها أنها كانت تقيم كثيرًا من الحفلات الخيرية لصالح الجمعيات النسائية وجمعية تحسين الصحة، ومستشفى روماتيزم القلب كما أسلفت سابقًا، وكان ذلك في فترة الخمسينات وأوائل الستينات. أمّا بعد ذلك فقد أظهرت من حبها وولائها لوطنها ما لم تُظهره امرأة أخرى في ذلك المجال وهو التبرع للمجهود الحربي، حيث قامت بجولات فنية في أغلب أنحاء العالم العربي تونس، سوريا، المغرب، لبنان، السودان، الكويت، والعالم الغربي في باريس، ولندن حيث أقامت حفلات فنية في تلك البلاد، وكانت تغني روائعها الفنية القديمة والحديثة واستثمرت حُب الملايين لها ووظفته لصالح بلدها مصر والمجهود الحربي والأنشطة الاجتماعية الإنسانية، وتبرعت أيضًا بجزء من مجوهراتها للمجهود الحربي، فكانت بذلك نعم الابنة الوفية لوطنها.

كانت حفلات السيدة أم كلثوم الشهرية عبارة عن اجتماع عربيّ شعبيّ موسّع لا تصلك فيه دعوات خاصة وليس مقيدًا بأسماء معينة أو معروفة مسبقًا، ولكن ليلة حفلتها كانت تعتبر سهرة عربية موحدة حول الراديو من المحيط إلى الخليج، يجتمع فيها الجميع

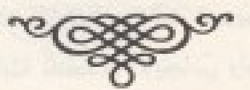
من العراق والكويت والإمارات والسعودية والبحرين وقطر والأمارات العربية شرقًا، إلى الجزائر والمغرب غربًا إلى السودان وموريتانيا واليمن جنوبًا إلى لبنان والجزائر وسوريا ومصر وتونس وليبيا شمالاً، الكل يسمع ويتمتع ويوافق، وممنوع الأحاديث الجانبية أثناء غنائها. ألم أقل لكم أنها الشخصية الوحيدة التي اتفق على حبها جميع العرب منذ قرون، ولذا فضلت أن أطلق عليها الملكة التي توجها العرب عليهم من خلال حبهم لها، وأعترف أنني مرة واحدة في حياتي سرت فيها حافي القدمين في الشارع، حيث فقدت حذائي من شدة الزحام في ميدان التحرير، كان ذلك أثناء اشتراكي في تشييع جنازة أم كلثوم، ولم أنزعج ولم أحزن ولكنني كنت فخورًا بأنني حضرت تشييع جنازتها في فبراير عام (١٩٧٥م) حيث كُنت طبيبًا حديث التخرج.



32

شيرين عبادي

(امرأة التحدي الايجابي)





عظمة التحدي الإيجابيّ تتمثل في هذه السيدة الإيرانيّة شيرين عبادي التي استحقت من أجلها أن تنال جائزة نوبل للسلام عام(٢٠٠٣)م.

بدأت مسيرة السيدة شيرين عبادي في إيران حيث ولدت عام (١٩٤٧م) غرب إيران في مدينة حميدان الإيرانيّة وكان والدها أستاذاً في القانون أي أنّ العائلة تعتبر نموذجاً للأسرة الإيرانيّة حيث حصلت شيرين على الدكتوراه في القانون وتعتبر في حدّ ذاتها مثالاً راقياً للثقافة الإيرانيّة والفارسيّة العظيمة التي طالما أبهرت العالم بأبنائها

المرموقين على مستوى العالم في أوروبا وأمريكا، وكم قابلت منهم في كل من بريطانيا وأمريكا وسويسرا وفرنسا من الأطباء والعلماء الإيرانيّون ذوي التخصصات الدقيقة في جراحة المخ والأعصاب أثناء عمليّ خارج مصر بحُكم مهنتي كطبيب أمراض باطنيّة.

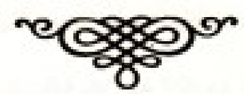
شيرين عبادي كانت أول امرأة تلتحق بسلك القضاء في إيران عام (١٩٦٩م) ثم حصلت على درجة الدكتوراه في القانون عام (١٩٧١م) من جامعة طهران، ثم تبوأت منصب كبير للقضاة في محكمة طهران، ولظروف محليّة وإقليميّة بعد الثورة الإيرانيّة مُنعت السيدات من العمل في سلك القضاء، وكانت شيرين عبادي واحدة منهن، وحيث إنّها امرأة قويّة الشخصيّة وقابلة للتحدي الإيجابيّ وليس للمعارضة، لم تيأس ولم تستلين لنقلها لوظيفة إدارية وأحيلت للمعاش المبكّر بناءً على طلبها، وسلكت طريق المحاماة وبدأت نشاطها بالدفاع عن القضايا القوميّة للمرأة الإيرانيّة. تخصصت شيرين في الدفاع عن الأطفال وحقوق الطفل والعنف ضد الأطفال والمرأة، وأسست جمعيّة حقوق الأطفال عام (١٩٩٥م) وتولت رئاستها حتى عام (٢٠٠٠)م. وكانت أيضًا أمًا وزوجة فاضلة، توالت خدماتها الاجتماعيّة لأبناء وبنات جنسها ورفضت الخضوع للمفاهيم الجديدة السائدة وتحدت إهدار أوضاع إنسانيّة وحقوقيّة معينة في المجتمع وناضلت من أجل ذلك، وأسست جمعيّة للدفاع عن حقوق الإنسان عام (٢٠٠١)م).

واستحقت بهذا النضال والتحدي في سبيل المبادئ، الحصول على جائزة نوبل للسلام عام (٢٠٠٥م) كأول سيدة إيرانيّة ومسلمة تنال هذا التقدير العالميّ.

37

السيدة نفيسة

(مثال للعلم والإيمان)



السيدة نفيسة -رضي الله عنها لُقبت بكريمة الدارين، لأنّ أبوها وأمها كانوا من سلالة سيدنا محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أي من أهل البيت.

أهل البيت منابع تزخر بالعطاء، ومناهل تروي الظمأ.. على طول الزمان وأنّ لهم في كل وقت منبعًا زاخرًا، يمد الناس بحوائجهم، ويحذرهم الضياع، ويشير لهم الدروب، وييسّر لهم عبور المسالك الصعبة وتجاوز العقبات والمنحدرات المهلكة، كانوا وهم أحياء، يغنون المحبين والناس، ويشاركونهم همومهم، ويقودونهم إلى برّ الأمان. وبعد الممات تتحوّل مراقدهم إلى منائر هداية، ومنارات إرشاد وسفن إنقاذ، يلجأ إليها كل ضال ويتيم وعائل، فيجد عندهم الهداية والإيواء والغنى.. بأذن الله.

كانت السيدة نفيسة من تلك الشخصيّات البارزة في ميدان العظمة والجلالة من الذين أزخروا الحياة بكرامتهم، وكانوا في حياتهم وبعد وفاتهم مصابيح هداية.

هذه الشخصية العظيمة، والدرّة المضيئة التي ما فتئت تنثر الخير والبركات الندية، لتروي المتعطشين لنمير علومها الهادية. هذه السيدة هي جوهرة من خزائن آل محمد- صلى الله عليه وآله وسلم، ودرّة من البيت العلويّ الطاهر.

والسيدة نفيسة هي بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن أبي طالب، فهي سليلة هذه السلسلة الطاهرة والأركان الزاهرة.

فأبوها الحسن الملقّب بـ(الأنور) شيخ بني هاشم في زمانه، وإليه انتهت الرئاسة على بني الحسن، كان إمامًا عالمًا جليلاً.. من كبار أهل البيت، ومن سادات العلويّين وأشرافهم وأجوادهم، ولي على المدينة المنورة في عصر الدولة العباسية مرتين، وهذه الولاية لم تنتقص من تواضعه وخضوعه لله سبحانه، وكان تقيًا صالحًا.. ختم حياته بالحسنى، حيث مات في طريق الحج قريبًا من مكة، فدفن فيها.

استُهل نور السيدة نفيسة بولادتها في مكة المكرمة سنة (١٤٥هـ) في الحادي عشر من ربيع الأول، وما إن أطلت بنورها حتى فرحت بها أمها واستبشر بها أبوها، وحمدوا الله –تعالى- على هذه النعمة الميمونة. ونشأت نشأة نبويّة في بيت الله الحرام، وعندما دخلت سنتها الخامسة ذهبت في صحبة والدها إلى المدينة المنورة. وأخذ أبوها يلقّنها ما تحتاجه من أمور دينها ودنياها، وكانت تسمع من شيوخ المسجد النبويّ ما يلقونه من علوم الفقه والحديث.

وهكذا ارتقت في مراتب الكمال، حتى بلغت مبالغ النساء، تقدم إليها الخُطّاب من السلالة النبويّة الشريفة.. من بني الحسن والحسين، كما تقدم إلى خطبتها الكثير من أشراف قريش والمسلمين لما عرفوه من كمالها وصلاحها، فكان أبوها يأبى إجابة طلبهم.

ثم جاء إسحاق المؤتمن ابن الإمام جعفر الصادق... يخطبها من أبيها، فصمت ولم يرد جواباً، فقام إسحاق من عنده، وتوجه إلى الحجرة النبوية الشريفة، وخاطب جده . بعد السلام. وشكى إليه همومه ورغبته في الزواج من السيدة نفيسة لدينها وعبادتها، ثم خرج. فرأى والدها في المنام تلك الليلة رسول الله(ص) وهو يقول له: (يا حسن! زوّج نفيسة من إسحاق المؤتمن). فزوجه إياها في شهر رجب سنة (١٦١هـ).

وكان إسحاق من أهل الفضل والاجتهاد، والورع والصلاح، كيف لا وهو ابن الإمام الصادق... وقد أخذ عن أبيه الكثير من علومه وآدابه وأخلاقه، حتى أصبح له شأن ومقام ووثاقة لا تخدش.

وهكذا كان في هذا الزواج المبارك انسجامًا يتوافق مع ما نشأت عليه السيدة نفيسة من حب الله والانصراف إلى طاعته (جل جلاله). وقد ولدت له (أبا القاسم) و(أم كلثوم)، وهكذا اجتمع في هذا البيت نور الحسن... ونور الحسين.... وكان من عقبهم السادة (بنو زهرة) في حلب وأطرافها.

وكانت عليها السلام وهي في المدينة لا تفارق حرم جدّها المصطفى(ص)، قارئة ذاكرة باكية، راكعة.. ساجدة.. ضارعة داعية، وقد حجت بيت الله الحرام ثلاثين حجّة، أكثرها مشيًا على الأقدام تقرّبًا إلى الله، وزلفًا إليه.

تقول زينب بنت يحيى المتوّج: (كانت عمتي نفيسة تأكل في كل ثلاثة أيام أكلة واحدة، وكانت لها سلّة معلقة أمام مصلاها، فكانت كلما اشتهت شيئًا وجدته في السلة، وكنت أجد عندها ما لا يخطر بخاطري، ولا أعلم من أين يأتي، فعجبت من ذلك، فقالت: يا زينب، من استقام مع الله تعالى كان الكون بيده وفي استطاعته). وليس هذا بغريب بعد قصة مريم بنت عمران(ع) التي نقلها القرآن الكريم: ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران:٣٧).

ولا يمكّننا الوقت من ذكر فضائلها الكثيرة، فالكلام عن زهدها وكرمها ويقينها بالله، وقضائها حوائج المحتاجين أكثر بكثير مما يسعه هذا المختصر.

فقد كان رسول الله(ص) مرشدها الأول والكوكبة الطاهرة من أبنائه البررة الأتقياء، وكان الموت والآخرة نصب عينيها، ويكفي دليلاً على ذلك حفرها قبرها بيديها، وقضاءها فيه شطرًا من وقتها.. كل يوم تستلهم منه العظات، ولعلّها كانت تحاسب نفسها وتهيئها للقاء بارئها نقية طاهرة.

شُغف أهالي مصر حُباً بالسيدة نفيسة، وزاد شوقهم فيها ورغبتهم إليها عندما علموا أنها في الطريق إلى مصر، فخرج لاستقبالها أهالي القاهرة وأعيانها، وكانت بصحبة زوجها (إسحاق المؤتمن)، ونزلت في دار كبير التجار، وبعد فترة استقرت في الدار التي أعدت لها.

وراح الناس بمختلف فئاتهم يترددون عليها وعلى زوجها.. يأخذون عنهما العلم والفقه والحديث، فحصلوا بذلك على الكثير من الثقافة الصحيحة، واستمروا يتدفقون

عليهما، وأصبحت رمزًا للطهارة والقداسة في تلك الديار وأصبحت معلمة المسلمات المصريّات في أمور دينهن ودنياهم.

وكان لأخيها يحيى (المتوّج) بنت واحدة اسمها (زينب) انقطعت لخدمة عمتها تقول: (لقد خدمت عمتي نفيسة أربعين سنة، فما رأيتها نامت بليل أو أفطرت بنهار، في العيد وأيام التشريق) وتقول: (كانت عمتي تحفظ القرآن وتفسّره وتقرأه وتبكي. وهكذا عاشت في مصر معزّزة مكرّمة، ينتهل من نمير علومها أهالي مصر. وكانت مثالاً للحديث الشريف: (عاشروا الناس معاشرة إن عشتم حنّوا إليكم، وإن متّم بكوا عليكم)، وهكذا ما أن حلّ عام (٢٠٨هـ) -ولم تكد تدخل سنتها الرابعة والستين- حتى أحست بدنو أجلها، فكتبت إلى زوجها تطلب حضوره.

واشتدت بها العلّة، حتى حلّت عليها أول جمعة من شهر رمضان، فزاد عليها الألم -وهي صائمة- فدخل عليها حُذّاق الأطباء، فأشاروا عليها بالإفطار لحفظ قوتها ولتتغلب على مرضها فرفضت.

فانصرف الأطباء، وقد شدّهم الإعجاب بقوة يقينها وثبات دينها، فسألوها الدعاء فقالت لهم خيرًا ودعت لهم.

وشاءت السيدة نفيسة أن تختم حياتها بتلاوة القرآن الحكيم، وبينما كانت تتلو سورة الأنعام، حتى إذا بلغت قوله تعالى ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٧)غشي عليها. تقول زينب - بنت أخيها: فضممتها إلى صدري، فتشهدت شهادة الحق، وصعدت روحها إلى باريها في السماء.

وما إن ذاع خبر وفاتها حتى عجّ الناس بالبكاء والنحيب، ودخل الحزن بيت كل محب وعارف لفضل هذا البيت الطاهر. ووصل زوجها (إسحاق المؤتمن) إلى مصر بعد أن كانت قد فارقت روحها الطاهرة البدن المسجّى.

وهكذا، بعد أن تم القرار على دفنها في القاهرة، اجتمع الناس لتأدية المراسم، فكان يومًا مشهودًا، وازدحم الناس ازدحامًا شديدًا.. كلهم يريد أن ينال شرف الصلاة عليها، وتشييع جنازتها، وأقيمت الصلاة عليها في مشهد ضخم حافل لم يُرَ له مثيل. ودفنت في قبرها الذي حفرته بيدها - وطالما تمددت فيه أيام حياتها تتلو القرآن تتمعن بآياته، وتتأمل الأيام التي لا بد من مجيئها.

وهكذا أصبح قبرها علمًا ومزارًا.. يزوره المحبّون، ويتذكرون بركات هذه السيدة الجليلة على أهالي مصر، وما منحتهم من علوم وآداب وما أتحفتهم به من فقه وحديث نبويّ. ويتذاكرون تلك الكرامات التي بقيت ذكراها بينهم. وتوفيت عام (٢٠٨ هجريّة)، رحمها الله وأدخلها فسيح جناته.

45

الملكة عفت

(رائدة تعليم البنات في الجزيرة العربية)

في أوائل القرن العشرين وبعد الحرب العالمية الأولى جرى تقسيم العالم العربي إلى عدة دول بعد سقوط الخلافة العثمانية وانتهت وحدة الجغرافيا والتاريخ التي طالما تحدث عنها العرب (وكان ذلك بعد معاهدة سايكس - بيكو).

في ذلك الوقت كان هناك صورة مغايرة تحدث في الجزيرة العربية، فعلى عكس التفرقة التي حدثت بين العرب، كان هناك جهداً حثيثاً من شخصية تاريخية تعمل على توحيد أرض الجزيرة العربية وهو المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود وأبنائه ومعاونيه، الذين نجحوا في لمّ شمل أبناء الجزيرة العربية عام(١٩٢٣) في صورة دولة قوية موحدة لم يدنسها استعمار أجنبي في تاريخها وهي المملكة العربية السعودية، من ذلك التاريخ بدأ البناء الحقيقي والعمران والتعليم وانشاء الطرق ومشروعات الكهرباء والمياه في البلاد.

في خمسينات القرن الماضي عندما كان المغفور له الأمير فهد بن عبد العزيز آل سعود (الملك فهد فيما بعد) يتولى وزارة التربية والتعليم (المعارف)، قام بجهد مشكور في بناء المدارس و الكليات الجامعية، وبدأت مسيرة التعليم في المملكة العربية السعودية، أيضاً في ذلك الوقت ظهرت شخصية نسائية جديرة بالاحترام والعرفان من كل فتيات ونساء المملكة العربية السعودية وهي المغفور لها الملكة عفت زوجة المغفور له

الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود، تبنت الملكة عفت أولى اللبنات اللازمة لمشروعات تعليم البنات في المملكة العربية السعودية هي و مجموعة من الأميرات السعوديات ، وذلك بمؤازرة وتشجيع من المجتمع السعودي وعلي رأسهم المغفور له الأمير فهد بن عبد العزيز آل سعود وزير التعليم في ذلك الوقت، وقامت بإنشاء عدة مدارس ودعت من يرغب من الأهالي في إلحاق بناته بتلك المدارس الخاصة بالفتيات فقط، وقد تقابلت شخصياً منذ ثلاثين عاماً بإحدى المُدرسات اللاتي بدأن العمل في مشروع تعليم البنات بالمملكة وهي المرحومة السيدة مفيدة الدباغ، وقد شرحت لي مدى الجهد الذي بذلته الملكة عفت رحمها الله هى ومجموعة الأميرات، سواء في جدة أو في الرياض لوضع الأسس الأولى لذلك المشروع العملاق الذي يخص نصف المجتمع السعودي، والذي كان من آثاره النهضة التعليمية التي شهدتها فتيات وسيدات المجتمع السعودي الآن، حيث وصلت نسبة الإناث خريجات الجامعات السعودية إلى ما يقارب نسبة الذكور، ودخلت المرأة السعودية أغلب مجالات العمل التي تليق بها وتناسب طبيعتها و لا تتعارض مع الدين الإسلامي، وقد كان تعيين سيدة بمرتبة وزيرة في مجلس الوزراء السعودي عام (٢٠٠٩) وأصبحت مسئولة عن رئاسة تعليم البنات في المملكة ، و ذلك بأمر ملكي من خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود، هو الثمرة الحديثة لنجاح المرأة السعودية.

وكان هذا التعيين محصلة لهذا الجهد الأول الذي بُذل في القرن الماضي، حيث أصبحت المرأة السعودية تعمل صحفية وكاتبة وطبيبة ومذيعة وشاعرة وممرضة وسيدة أعمال، فرأيت أن أذكر المغفور لها الملكة عفت في هذا الكتاب ضمن السيدات العظيمات اللاتي قدمن جديداً لمجتمعهن، نظراً لما قامت به من مبادرة جديدة في الجزيرة العربية في القرن الماضي، وكان جهدها مصاحباً للجهود المبذولة في التعليم العام للبنين في المملكة الذي نرى ثمرته الآن في الصورة المشرفة التي يظهر فيها أبناء وبنات المملكة العربية السعودية في المحافل الدولية.

53

التركية خالدة أديب هانم

(أول وزيرة تعليم في العالم)

أول مبادرة لتولي سيدة مهام ومنصب وزيرة بالعالم الإسلامي في العصر الحديث كانت في دولة تركيا الحديثة وكان ذلك عام (١٩٢٢)م، ولعل ذلك كان فاتحة خير على نساء الشرق والعالم العربي والإسلامي، حيث ظهر في نفس العقد من الزمان سيدات جليلات مصريات مثل السيدة صفية زغلول (أم المصريين) ورفيقاتها الكريمات والسيدة هدى شعراوي في أوائل القرن العشرين وكذلك السيدة ملك حلمي ناصف وغيرهن.

كان الشرق في أوائل القرن العشرين يعتبر المرأة ليست أهلاً للقيام بالأعمال الكبيرة والمناصب العليا مثل الوزارات، وأن تترأس المرأة الرجل في الأعمال، لأن المرأة في ذلك الوقت لم تكن تخرج عن وظيفتها الأساسية وهي تربية الأولاد والعناية بالأسرة والمنزل وبعض الأعمال البسيطة التي تخص النساء مثل المدرسات وهيئات التمريض في المستشفيات ولكن لم يرشحها المجتمع الشرقي لتتبوأ منصب مديرة أو قنصل بالخارجية أو مديرة في بنك وكان ذلك تبعًا للتقاليد والأعراف الشرقية، ولكن دلت الحقائق عبر التاريخ الحديث على نقض آراء أولئك الذين حجبوا عن المرأة تلك المناصب، حدث ذلك عندما بدأ تعليم المرأة في تركيا في أوائل القرن العشرين (كما حدث في مصر)، وإحدى سيدات تركيا المؤهلات علمياً تم اختيارها لمنصب وزيرة التعليم وكان ذلك عام (١٩٢٢)م، وهي السيدة خالدة أديب هانم، وإذا عدنا إلى التاريخ الحقيقي لتولي امرأة

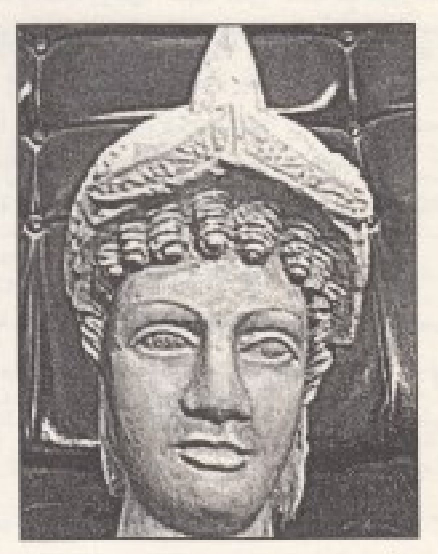
منصب وزيرة لأول مرة في أوروبا وأمريكا سنجد أنها كانت السيدة مارجريت بوند فيلد عام (١٩٢٩)م، وزيرة للعمل والعمال في المملكة المتحدة، أي أن دولة تركيا في عصر الرئيس العظيم مصطفى كمال أتاتورك سبقت العالم الغربي في تعيين السيدة خالدة أديب هانم في منصب وزيرة في الحكومة التركية. ووراء كفاح السيدة خالدة أديب قصة صراع وإرادة قوية منها هي شخصيًا، حيث كان تعليمها على النمط الأوروبي وكانت تبغض السياسة الأوروبية بعد الحرب العالمية الأولى التي فتتت العالم العربي إلى دول متفرقة وقاومت السياسة الإنجليزية، وقد حاول الإنجليز اعتقالها سياسيًا ولكنها تنكرت في زي رجل بالعمامة الخضراء وهربت كحاجٍ إلى مكة، ثم ظهرت في ساحات الحرب لتضرم نار الحماسة في الجنود كأنها جان دارك التركية. كانت على قدر كبير من النبوغ والذكاء مما أهلها لتولي منصب وزيرة التعليم في الجمهورية التركية عام (١٩٢٣م) بعد انتهاء عصر الخلافة العثمانية، وقد أدت مهمتها برفع مستوى التعليم في تركيا الحديثة خلال فترة العشرينات واهتمت بتعليم البنات وظهرت المرأة التركية بجانب الرجل في أغلب الوظائف، وتوج عطاء المرأة التركية بأن تولت السيدة تانسو كيلر منصب رئيس وزراء الحكومة التركية عام (١٩٩٣)م، لتكون بذلك أول رئيسة وزراء سيدة مسلمة في الشرق الأوسط، كما كانت المبادرة الأولى في تولي سيدة منصب وزيرة من تركيا أيضًا عام (١٩٢٣م) وهي السيدة خالدة أديب هانم.

60

الملكة زنوبيا

(عظيمة القيادة والطموح والتهور)





قصة الملكة زنوبيا من أعظم قصص التحدي والقوة والحكمة في التاريخ، وهي ملكة عربيّة الأصل ذات شخصيّة تتميز بالثقافة العالية، ولدت بسوريا وكان زوجها ملك تدمر وهي مدينة تقع على بعد (٥٠ كم) من دمشق.

كانت الهيبة والجمال والعظمة ظاهرة على وجهها، وأضافت إليها دراسة تاريخ الغرب واللغات الآراميّة واليونانيّة واللاتينيّة بالإضافة إلى العربيّة ويقال إنّ اسمها الأصليّ زينب بنت عمرو بن الظرب ابن اذينة.

من صغرها وهي تهوى الفروسيّة وكانت لا تركب الجمل (الهودج) مثل بنات جنسها، ولكن دائمًا ما تمتطي الحصان في شموخ الفرسان وتركب العربة الحربيّة وتضع العمامة على رأسها وتلبس أزياء مرصعة بالجواهر والحلي، وكانت تشارك زوجها في رحلات الصيد ولا تهاب الوحوش المفترسة، ولم تكن غليظة القلب على شعبها؛ بل كانت عطوفة وتُخضع نفسها بالحكمة لكي تقاوم نزعات الانتقام في الأمور الصعبة.

يرجع نسب أمها إلى سلالة الملكة كليوباترا وتعلمت في مدرسة الإسكندريّة للفلسفة، وكانت منذ صغرها تحضر مجالس القوم وجلسات مجلس الشيوخ أثناء حكم زوجها.

كانت زنوبيا ترافق زوجها -أيضًا- في ميادين القتال وتكون على رأس الجنود في الحرب أثناء الغزوات، وتغلب زوجها أذينة على الملك شاهبور الفارسي وكافأته روما بأن أوكل له الإمبراطور الروماني جاليئوس إدارة الجزء الشرقيّ من المملكة الرومانيّة بمنطقة آسيا.

بدأ الملك أذينة يوطد أركان مملكته ونجح في أن يمزج فيها العرقيات المتنوعة من عربيّة وآراميّة ويونانيّة ورومانيّة وسهل عليه ذلك لأن أغلب السكان في سوريا كانوا من أصل عربي في ذلك الوقت.

اغتيل زوجها أذينة في قمة نجاحه وانتصاراته مع ابنه هيرودس على يد أحد أقربائه والذي كان يطمع في أخذ السلطة منه، فاتخذت لنفسها لقب زوجها، وحكمت المملكة مع ابنها ولبست ملابس الرجال وساعدتها روما ضمنيًا بالموافقة على ذلك، مع وعد بعدم إزعاجها، وذلك لكي تبقى مدينة تدمر قوية وحاجز إلى حدّ ما بين الفرس والروم، بل ساعدها ذلك على أن تزيد رقعة مملكتها حتى حدود بادية سوريا جنوبًا، ووصلت جيوشها شمالاً إلى بيزنطة وقتلت هيراكليون قائد المنطقة، ثم فتحت مصر والإسكندريّة. أقامت الملكة زنوبيا مظاهر حضاريّة عظيمة وباهرة في مدينة تدمر تميزت بالفخامة والثراء والمباني العالية والمعابد الكبيرة ومهدت طرق التجارة واستغلت انطفاء نجم مدينة البتراء الأردنيّة كمحطة وسيطة للتجارة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب وجذبت بمدينتها الجميلة والمنافسة في الجمال لمدينة روما قوافل التجارة إلى تدمر.

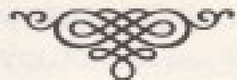
الملكة زنوبيا كان لها طموح في الوصول إلى عاصمة الإمبراطوريّة الرومانيّة ولكنها أخفت هذا الطموح أولاً، ولعبت دور الحياد على الأرض بين الإمبراطوريتين الشرقيّة والغربيّة (بين بلاد فارس وروما) حتى تقوي مملكتها هي، وقد لاحظ ذلك الإمبراطور الروماني الجديد أوريليانوس أنها كانت تأكل من أراضي الإمبراطوريّة الرومانيّة فقط حيث استولت على مصر وجزء من آسيا الصغرى، وبدأت تساومه على الاعتراف بها حاكمة على مصر، وبدأت في سك العملة التي عليها صورة ابنها شريكها في الحكم بما يعني استقلال مملكتها، وتلك كانت غلطة عمرها والطامة الكبرى والطموح المتهور في حياتها حيث بدأ إمبراطور روما الجديد أوريليانوس عام (٢٧٠) ميلاديّة يخاف من طموحاتها التي وصلت إلى أنها أرادت أن تحكم الإمبراطوريّة الرومانيّة ووجد أن سك عملة ذهبيّة خاصّة مبرزًا هامًا لمحاربة هذه الملكة القويّة، فقام بحملة على تدمر عام (٢٧١) بجيوشه وتقدمت زنوبيا على رأس جيشها ولكنه استطاع التغلب عليها بسهولة رغم أنها أبلت بلاءً حسنًا في ميدان القتال مما دعاه إلى احترامها عندما وقعت في الأسر ولم يقتلها وأخذها معه أسيرة في سلاسل ذهبية إلى روما هي وأولادها بعد أن فشلت في الهروب عبر نهر الفرات، وعندما عرضها أسيرة في موكب النصر في روما مقيدة بالسلاسل لم يخلع من على رأسها التاج لكي يرد على لوم الذين سخروا منه باعتبار أنه يشن حرب على امرأة وجُرح في أثناء الحرب.

وقال لهم: إنكم لا تعرفون مدى قوة شخصيّة هذه المرأة ومدى بسالتها، وكانت تلك شهادة العدو قبل الصديق على مدى عظمة تلك السيدة التي كانت ملكة من أشهر ملكات الشرق.

61

شجرة الدر

(الذكاء والقوة والجمال والدهاء)





سيرة السلطانة شجرة الدر ستعيش طويلاً لأنها أول امرأة في العصر الإسلاميّ تتولى الحكم في دولة إسلاميّة عربيّة في عصر العباسيّين، ويدعو لها الخطباء في المساجد في أنحاء مصر، كما كانوا يدعون للسلاطين من الرجال قبلها، ومن هنا بدأ العباسيّين رحلة إسقاطها وليس المصريّين.

شجرة الدر هي جارية من جواري الملك الصالح نجم الدين، اشتراها من آسيا، وفي أغلب الظن هي جركسيّة تميزت بالذكاء الحاد والفطنة والجمال، وكانت تجيد القراءة والفنون والغناء، ولكنها كانت تتميز بالدهاء والقوة، تلك المقومات في شخصيّتها جعلتها من المحظيات لدى الأمير نجم الدين فأحبها وتزوجها وأنجب منها ابنًا، وحيث إنها ملكت قلبه، فقد شاركته في كل شيء في حياته حتى في حكم مصر.

قامت بتشجيع وتأييد زوجها في صراعه مع أخيه الذي رشحه والده السلطان الكامل لتولي السلطة من بعده، وهذا الأخ لم يكن مستقيمًا، وكانت الأخطار تهدد البلاد من غزوات المغول والصليبين، ونجح نجم الدين في استعاده السلطة بتدبير زوجته ومساعدة المماليك بيبرس وأيبك وقلادون، وذلك في حملة انطلقت من منطقة الكرك في الأردن حيث كانا مسجونان هي وزوجها لدى الملك الناصر داود ابن عم زوجها الذي اتفقت معه شجرة الدر أن يفك أسرها ويطلق سراحها مقابل أن يتولى هو حكم الشام ويأخذ خراجها في حالة نجاحهما في استعادة عرش مصر. بعد توطد حكم مصر للملك الصالح نجم الدين وزوجته قام الملك الفرنسيّ لويس التاسع عشر بإعداد حملة لغزو مصر عام (١٢٤٩)، وفي هذه الأثناء ألم بالملك نجم الدين مرض خطير بعد أن استعد بالجيوش لمنازلة الفرنسيّين، فهونت عليه شجرة الدر وأقسمت له أنّها ستهزم الفرنسيين وستقف لهم، وعيّن لها الملك الصالح نجم الدين الأمير فخر الدين قائدًا للجيش نزولاً على رغبتها، واتخذوا من المنصورة مقرًا لقيادة المعركة، في أثناء ذلك توفي زوجها الملك الصالح، وهنا ظهرت حكمة وذكاء شجرة الدر؛ لأنّها أخفت نبأ وفاة الملك حتى لا يحدث بلبلة بين الجنود وينصرف اهتمام أمراء الأيوبيين والمماليك للاستيلاء على الحكم وساعدها في ذلك قائد الجيش الأمير فخر الدين، واستمرت المعركة وبدا لها أن الفرنسيّين على وشك الهزيمة وتم أسر قائدهم، ولكن غياب الملك الصالح بدأ يتسرب وظهرت شائعات عن أنه توفي، وهنا أدركت الأمر وأرسلت إلى ابنه توران شاه ليأتي سريعًا من آسيا، وأمرت قواد الجيش والأمراء أن يقسموا له يمين الولاء سريعًا ويدعو الخطباء باسمه على المنابر في المساجد لكي تحافظ على استقرار الدولة، وانتصر المصريون على الفرنسيّين عام (١٢٥٠)، وهنا استدارت لتوران شاه الذي احتاجته لشهور قليلة وكانت تعرف أنه طائش وفاسد وطاغي، ولكن ما كان باليد حيلة أخرى أثناء المعركة حيث حكمت معه أثناءها ولكنه تغير وبدأ يهددها ويستفز المماليك البحرية حتى لقي مصرعه على يد بيبرس ووافق المصريون على تولي شجرة الدر الحكم.

كان عهدها زاهرًا، أظهرت خلاله قدرة وجدارة فائقة على الحكم وأحسنت إلى الفقراء واتخذت لنفسها مجلس شورى من حكماء مصر وكانت لا تشرع في أي عمل إلا بعد أخذ رأيهم في مجلس للمشاورة.

بدأت شجرة الدر عمل آخر عظيم في عهدها وهو بدأ تسيير المحمل المصريّ إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة أثناء موسم الحج، محملاً بكل شيء يحتاجه الحجاج والمقيمين وحاملاً معه كسوة الكعبة الشريفة من مصر، وهي العادة التي اتبعتها مصر

منذ حكم الملكة شجرة الدر حتى ستينات القرن العشرين، وبدأ الخطباء يدعون باسمها على منابر المساجد، وصكت نقود نُقش عليها اسمها، وهنا استيقظت دولة الخلافة العباسيّة عندما وجدت أنّ نجاح امرأة في حكم مصر "والتي كانت دُرة دول الخلافة" يهدد مبدأ ذكورة الحكم، وأرسل الوالي العباسيّ خطابًا ما معناه: إنكم إن لم تجدوا رجلاً بدلاً من تلك السيدة التي تحكمكم فنحن على استعداد لإرسال رجل!!

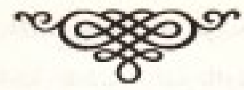
عندما شعرت شجرة الدر بالمأزق الذي تعرضت له قررت الزواج من عز الدين أيبك قائد العسكر لكي يحكم معها ويكون واجهة رجالي أمام منتقديها من مصر والشام وبغداد واشترطت عليه أن يطلق زوجته الأولى، حتى لا يولّي ابنه منها الحكم. سارت الأمور على ما يرام فترة، لكن الدهاء الذي تمتعت به شجرة الدر، قابله خيانة من زوجها عز الدين أيبك حيث أدار وجهه لها وأرسل يخطب ابنة الملك بدر الدين لؤلؤ والي البصرة لنفسه، وأراد أن يُنزل شجرة الدُر من قصر الحكم في القلعة لكي تسكن في القاهرة ليتفادى المشاجرة معها، ووصلت جرأته أنه أراد أن تسكن العروس الجديدة بقصر القلعة معه، وهنا كانت الخيانة الثلاثيّة: الغدر بمن أجلسته معها على العرش، إهانة كبرياء شجرة الدر أمام الشعب المصريّ، خطبة امرأة أخرى من بيت ملكيّ وما يتبعه من غيرة بين النساء، وهنا كان انتقامها انتقام الجبابرة دفعته إلى بيتها وفي لحظة ضعف وحماس ودهاء استقبلته بصدر رحب كأنّ شيئًا لم يكن وبراءة الأطفال في عينيها حتى دخل الحمام ليستحم، وهنا انقض عليه غلمانها وقتلوه، ثم التجأت إلى البرج الأحمر بالقلعة عام (١٢٥٧) ولكنها لم تنج من غضبة الأمراء الموالين له، ولا من غضبة زوجته الأولى "أم علي" التي حرضت ابنها "علي" وجواريها على ضربها بالقباقيب حتى ماتت، بعد مقتل شجرة الدر قدمت زوجة الملك عز الدين أيبك السابقة للنساء حلوى من اللبن والبندق والسكر والدقيق وسميت بعد ذلك "أم علي" على اسمها.

وهكذا لا يغلب الدهاء إلاّ الدهاء، وانطوت صفحة من صفحات أول وآخر سيدة تحكم مصر في العصر الإسلامي.

70

أم سيدنا موسى -عليه السلام-

(الصبر والإيمان هما جنة المظلوم)



عندما قال الشاعر: إنّ الصبر والإيمان هما جنة المظلوم، جال بخاطري أنّ أعظم من ينطبق عليها تلك المعاني هي السيدة العظيمة أم سيدنا موسى عليه السلام.

هي سيدة من بني إسرائيل آمنت وصدقت ما وعدها به الله –عز وجل- من أنّه راد ابنها موسى سليمًا معافًا لكي تقر بها عينيها؛ لأن الله-عز وجل- خصه بصفة لم تكن ممنوحة في ذلك الوقت لأيّ من البشر وهو أنه منحه محبة من عنده، كما ذُكر في كتاب الله القرآن الكريم، ومن منّا لا يعرف قيمة محبة الله إن ألقاها وأعطاها لعبد من عباده الصالحين، وطمأن الله قلبها من الخوف والولع إن هي ألقته في مجرى نهر النيل، وذلك عوضًا عن ذبحه المحتوم على أيدي فرعون وجنوده في مصر، كما ذُكر ذلك في القرآن والأنجيل والتوراة. ورغم أنّني مصريّ وأعتبر تاريخيًا وجغرافيًا من سلالة الفراعنة، إلاّ أنّ الإيمان والحق أسبق من كل ذلك ولذلك فإنّني أميل إلى التعاطف مع أم موسى ضد الفراعنة وأعتبرها من أهم الأمهات الصابرات في التاريخ القديم. **فمن تكون تلك السيدة؟؟**

من المعروف أنّ شعب بني إسرائيل جاءوا إلى مصر في عصر سيدنا يوسف عليه السلام، ثم جاء معهم سيدنا يعقوب عليه السلام، والذي توفي في مصر، وحزنت عليه البلاد حزنًا عميقًا استمر سبعين يومًا، ثم نقل جثمانه إلى جوار رفات أبينا سيدنا

إبراهيم -عليه السلام- في فلسطين، في أول الأمر أكرمت مصر شعب بني إسرائيل عندما جاءوا من الشام، وكان عددهم لا يزيد عن (٨٣) فردًا، فتناسلوا وزاد عددهم إلى قرابة الستمائة ألف، وصل إلى فرعون وحاشيته أنّ بني إسرائيل كانوا يتدارسو فيما بينهم ما يأثرونه عن سيدنا إبراهيم عليه السلام من أنّه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه، وذلك لما جرى لسارة زوجة إبراهيم من محاولة ملك مصر انتزاعها منه لجمالها ولكن الله عصمها وكتب لها النجاة.

بعد تداول تلك المرويّات بين المصريّين، أمر فرعون مصر أن يذبح كل مولود ذكر من بني إسرائيل، ويترك الرجال الكبار يقضي أجلهم بالوفاة العادية، وعُدّل هذا الأمر بعد ذلك إلى قتل المولود الذكر في عام ويترك المواليد الذكور في العام الذي يليه (وكانت أم موسى قد أنجبت هارون في العام السابق، فبناء على ذلك يجب أن يذبح ابنها الثاني موسى عند ولادته) ، وكان التعديل في الأمر له سبب، وهو أنّ الفراعنة والمصريّين خافوا أن يقل عدد فتيان بني إسرائيل فيضطر المصريّون للقيام بما يقومون به من أعمال شاقة، ويقال إنّ فرعون مصر رأى في منامه كأن نارًا قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بني إسرائيل (المرجع: قصص الأنبياء- الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير- ٧٧٤هـ).

من هول فرعون وشدة حذره من ولادة ذلك الغلام أنّه جعل رجالاً وقوابل يدرن على الحوامل ويعلمون ميقات وضعهن فلا تلد امرأة ذكرًا إلاّ ذبحه.

لمّا وضعت أم موسى وليدها خافت عليه من الذبح المحتوم، ولكن الله -تعالى- ألهمها أن تتخذ له تابوتًا فربطته في حبل وكانت دارها على مجرى النيل فكانت ترضعه، فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت، فأرسلته في النهر، وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به، وتلك هي أمومة وعبقرية السيدة أيارخا والدة موسى بوحي وإلهام الله -عز وجل- لها.

وانفلت الحبل الذي يربطه بالشاطئ وسار التابوت الذي به موسى بأمر الله في النهر، حتى وصل عند مكان مستقى جواري امرأة فرعون فلمّا رأينه أخذنه، فأردن أن يفتحن التابوت ولكنهن فضلوا أن يفتحوه أمام سيدتهم امرأة فرعون السيدة آسيا، فلما

وصلوا لها وفتحته رأت الطفل الجميل بداخله، فألقى الله في قلبها محبته، فلما علمت أم موسى باختفاء ولدها وشاع ذلك في المدينة، عرف زبانية فرعون وذهبوا ليقتلوه حيث هو، فقالت السيدة المؤمنة آسيا: اتركوه فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه فأذبحوه، فلما أتى زوجها طلبت منه أن تستبقيه قرة عين لها وله في القصر، فقال فرعون: يكون لك، فأما أنا فلا حاجة لي فيه. وهكذا نجا سيدنا موسى عليه السلام بإذن الله وأفضاله وفضل امرأة فرعون من أول هلاك، ثم بعثت تبحث له عن مرضعة لترضعه ولكنه رفض ثديهن جميعًا، حتى أشفقت عليه امرأة فرعون وخافت أن يهلك بدون اللبن فأرسلته مع بعض من جواريها إلى سوق البلد ومجمع الناس عسى أن يجدوا امرأة يقبل أن يرضع منها، فلم يقبل.

أصبحت أم موسى والهة، فقالت لأخته: تقصي أثره واطلبيه، هل تسمعين له ذكرًا؟ أحي ابني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه.

قصَت أخت موسى أثره حتى عرفت أنه ببيت فرعون وقالت للجواري: هل أدلكم على امرأة ترضعه ولم يصدقوها أولاً ولكنهم إشفاقًا على ذلك الطفل الجميل ومحاولة لإرضاء سيدتهم امرأة فرعون وافقوها وطلبوا منها أن تحضر من توعدهم بها لإرضاعه، طارت الأخت إلى بيت أمها وبشرتها بأنها وجدت أخيها ويريدون امرأة لترضعه وقد رفض بإذن الله كل المرضعات اللاتي أحضرتهن إليه امرأة فرعون، انطلقت أم موسى إلى القصر ورأت ابنها وتذكرت وعد الله لها، فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريًا، وانطلقت الجواري إلى امرأة فرعون يبشرونها أنهن قد وجدن لأبنها مرضعة فأرسلت إليها فأتت به وبها، فلما رأت تعلق الطفل بهذه السيدة التي أرضعته، قالت لها: امكثي ترضعي ابني هذا، فأني لم أحب شيئًا حبه قط، أي طلبت منها أن تقيم معهم في القصر، ولكن أم موسى اعتذرت لها عن الإقامة بالقصر لوجود أولادها الآخرين ببيتها ولا تريد أن تضيعهم وكذلك مسئوليتها في منزلها، وعرضت على امرأة فرعون أن تأخذه إلى بيتها وترضعه هناك وتعيده إليها كل حين حتى يشب ويكبر، وهنا آمنت وتذكرت وعد الله لها بأن يرده إليها وكان وعد الله حق.

وهكذا كانت السيدة أيارخا والدة سيدنا موسى عليه السلام مثالاً للصبر والإيمان.

71

زوجة أيوب

(أعظم الصابرات في تاريخ البشرية)

اسمها رحمة أو ليا بنت يوسف بن يعقوب، هي تلك المرأة الصابرة القانتة التي تقف بجوار زوجها حال ابتلائه، والتي جعلته يسجد لله ثلاثة أيام حتى كشف عنه الضُرّ.

القرآن المجيد يذكر القصص التي يراها موطن عبرة لأتباع الرسول الخاتم ومن جاء خلفهم، كما كان أمر يوسف والكهف مثلاً.

ذكر التوراتيون أيوب كرجل صالح لا يفعل الشر من بني إسرائيل، برّ بالناس مستقيم الفطرة، وهم قد أفرطوا في وصف أمواله حتى لكأنه يملك الأرض والنبات والحيوان والإنسان.

فأعطى الله لإبليس القدرة على إفساد ماله، فما هي إلا ساعة حتى يجئ لأيوب مرسال من عند كل مال هو يملكه يخبره بهلاكه وهلاك عبيده، لكن أيوب لا يشرك بالله، بل يقول: للدنيا عرياناً قد خرجت إليها وعُرياناً أخرج منها، فليكن اسم الله مباركاً.

مرض أيوب، حتى إنّ لحمه يتهاوى، وما يملك شيئاً سليماً إلا قلبه ولسانه، فيقول أيوب: ما دام لساني سليم فلن أقول به إلا الخير.

إلا أنه بعد خسارة ماله وأولاده، وقيل كانوا ثلاثة بنات وسبعة رجال، وفقده للأهل والأحبة بات مرضه عظيماً فتجافاه الناس كلهم أجمعون إلا زوجته، فمن تكون زوجته هذه؟!

قالوا: اسمها رحمة. وقالوا: بل هي ليا بنت يوسف بن يعقوب.

ولعلّ أيوب بات يُضرب به المثل في تحمله ما أصاب ماله وجسده، قد شعر بمرارة ذلك الفقر والهجر والخذلان من الناس. وزوجته قد طالبته مرارًا بأن يطلب إلى ربه أن يعفو عنه ويرحمه، إلاّ أنه قال لها: سبعون عامًا قد كنت فيها مُنعمًا، أفلا أصبر على بلاء ربي مثلها ؟ (أو ستون عامًا بحسب بعض المرويات) وصبرت زوجته عليه أثناء مرضه وعملت لدى الآخرين كي تنفق عليه ثمانية عشر عامًا أو أقل. ولم تتأفف ولم تضجر من خدمته وتمريضه حتى قيل إنها باعت ضفائر شعرها في النهاية.

قيل إنه قد عمّر بعد مرضه أربعة أجيال بعدها رأى فيها أبنائه (الجدد) وأحفاده وأولادهم وأحفادهم هذه بإيجاز هي قصة أيوب كما يراها التوراتيون وبعض المفسرين الإسلاميّين.

إن هذه الزوجة كانت صالحة، وإنها بموقفها هذا من أيوب تُعد من خيرة نساء أهل الحياة. قالوا إن أيوب كان عنده من المال ما لا يكاد يحصى، ولقد كان الناس يتسامعون ببره وبدينه وبماله ويبجلونه ويحترمونه، وأنه ما كان أحد في المدينة كلها يجهله ولا في بني إسرائيل. وما أصاب أيوب عرفه الناس جميعًا حتى إنّ مقاطعته باتت شبه مقطوع بها، وغير خفية على أحد. وهي لتعلم أنّ أيوب لم يخطئ ذلك الخطأ الذي أورد له هذه الكوارث. إنما هو الابتلاء، فهي أعلم من غيرها بطهره ونقائه، دون سواها.

يدلنا على ذلك أنّها كانت تطلب إليه أن يرجو ربه فيعفيه مما ألمّ به.

ويعتقد المصريّون أنّ شفاء سيدنا أيوب من مرضه بإذن الله قد حدث في منطقة العريش بشمال سيناء، ولا نعرف مدى صحة هذا الاعتقاد إن كان صحيحًا أم هو من الروايات الشعبيّة المحليّة، ومع ذلك يتدفق آلاف المصريّين لشاطئ العريش يومًا محددًا كل عام ويسمى "أربعاء أيوب" وهو يوم الأربعاء السابق لعيد القيامة المجيد في التقويم القبطيّ المصريّ حيث يأتي المواطنون من كل محافظات مصر وخارج مصر وكبار السن والمرضى والسيدات لاعتقادهم أنه في هذا اليوم أتم الله نعمته على نبي الله أيوب بالشفاء بعدما ابتلي بمرض شديد، وكان ذلك بعد نزوله لشاطئ بحر العريش أثناء غروب الشمس .

واعتقد الناس أنهم لو فعلوا مثل نبي الله أيوب في مثل هذا اليوم ستتحقق الأماني والأمنيات ويتم شفاؤهم، فتجد العديد من المرضى من كبار السن والسيدات من مصر وخارجها من البلدان العربيّة والأوروبيّة وهم ينزلون البحر عندما يتلامس قرص الشمس الأحمر سطح المياه وعند الغروب تجدهم يتسابقون في نزول الشاطئ البحر آملين في الشفاء مثل أيوب، وهناك تسمع العديد من القصص والحكايات، قصص وحكايات من الأماني تحاكي صدورهم لعلّهم يجدون في مثل هذا اليوم حسب اعتقادهم حلاً لشكلاتهم المرضية وأمنياتهم الحياتيّة..!

72

السيدة هاجر

(زوجة سيدنا إبراهيم -عليه السلام- وأم العرب)

سيدنا إبراهيم -عليه السلام- هو أول الموحدين بالله من عشريته وأهله ببلاد العراق، فسيدنا إبراهيم كان أمّة وحده، تعظيمًا له، وإبراهيم كالأنبياء جميعًا لم يكن لهم من التشريعات سوى الدعوة إلى الوحدانية وإفراد الله وحده بالعبودية، وبعض مكارم الأخلاق.

تزوج سارة ولما انقضت مدة طويلة لم ينجب منها، هاجر لمصر وزعموا أنّ مصر بها ملك يأخذ كل امرأة حلوة تروق في عينيه، وكان الملك يرى كل النساء . لذا فإنه أخبره بأنها أخته، وليست زوجه، ليتق ذلك. أصبحت لإبراهيم مكانة عظيمة في مصر، وباتت لسارة جوارٍ، منهن جارية مصرية اسمها هاجر، فبعد تفكير وتردد طويل، دفعت سارة بهاجر إلى إبراهيم ينكحها علّها تنجب له، ميراثًا للنبوة، وإبراهيم يحتاج الولد ليرث النبوة، وربما اجتاحته هموم الأبوة بجانب النبوة. فأنجبت هاجر له، سيدنا أسماعيل عليه السلام.

وهنا تتبدى ملامح المرأة الحقيقيّة، ولعلّه اصطلح على أن يتزوج الرجل بالأمَة التي تنجب له، ويكون لها نفس حقوق الزوجة، ونقمت سارة على هاجر بعد أن أنجبت الأخيرة إسماعيل فأمرته . في ثورة عارمة . أن تفارق هاجر ديارهما، بل يهاجر معها ووليدها، وقيل من غير ما مصدر أنها لم تكن تتحمل سماع صوته يبكي، وأن قلبها كان

ينفطر إذا رأت هاجر وهي تهدهده، فهي جارية سارة أي خادمتها، وقيل إن الملك قد وهبها إياها، عندما أراد أن ينكحها، فلما رأى جمالها وحسنها تعجب وزاد إقبالاً عليها، ولكنه ما مدَّ إليها يده حتى يبست، فلما أخذها بعيداً، عادت إليها الروح، ولما يتقدم إليها تُشل قدماه، ولما يعود للوراء تعود قدماه للحياة، فعلم أنها معصومة ومحفوظة، فلما علم حقيقة علاقتها بإبراهيم تركها، ووهب لها هاجر.

تروي لنا الكتب كافة أن هاجر سارت وإسماعيل مع إبراهيم إلى مكان مهجور عُمِّر فيما بعد، وسمي مكة، ولعمري إن كان قد قال لهاجر إنّ الله قد أمرني بهذا، ثم توجه بالدعاء لله أن يحفظهما ويرعاهما، فإنّ سارة كانت على غير علم بما ينتظرها، بل كانت سارة تظن أنه يدفع بهما إلى التهلكة. لكأنها حال عقمها رأت أن يكون لزوجها ذرية، وإن لم تكن منها - في لحظة إشفاق عليه - ربما في لحظة إنسانية عارمة، ربما في لحظات التاريخ الآثرة رأت ذلك، بل ربما حسبت للمجد التاريخيّ لزوجها حسابه، بل ربما تكون آمنت بدعوته وتريد له ذرية تؤازره عساه ينجح فيها بتعضيده، مبعدة نفسها عن هذا الخلود وذلك المجد الذي لن تنجح في أن تبنيه.

لكن مهلاً.. . إنها لم تختر له إلا هاجر المصرية، وقيل إنّ هاجر جارية ليست تمتلك من أسباب القوة والسيطرة بعض ما تملك سارة، بل لن تتطاول إلى مرتبتها أبدًا، وإن أنجبت.

لا بد وأنّ سارة قد أحكمت التدبير جيدًا لهذه الزيجة واختارت التوقيت المناسب تمامًا لإتمامها، حتى تكون هي الأعلى في بيته رغم أنها ليست أمًا لأولاده.

قالت هاجر له وهو ينظر إليها مودعًا بهذا الوادي القفر: آلله أمرك بهذا ؟

أجاب: نعم، قالت: إذن فلن يضيعنا الله.

لم تكن تعلم إلى أي مكان ستهاجر بعيدًا عن سارة، ولم يخبرها بأن الله هو الذي أمره بهذا طوال الرحلة وهي تستغرق أيامًا إن لم نقل شهورًا.

المهم أن هاجر وكأنها تكاد ترى الموت - كالمحتضر - تلتمس القرب من رحاب الله، إذن لن نضيع، طالما هو الذي دعانا لرحابه فلربما عنده جنة توازي في نعيمها مثل هذا القفر حسب تخيلها في تلك الآونة.

قال البعض إن سارة أمرت حقًا بإخلاء وجه زوجها لها دون هاجر، وسارة لم تعلم فيما بعد أنّ الله أوحى إلى إبراهيم أن يذهب بهاجر إلى هذا المكان النائي.

وقيل إنه آنس منها (هاجر) تسليمًا مطلقًا حين قالت: إذن فلن يضيعنا الله. هنا توجه إلى ربه أن يستنزل رحماته عليهما.

بحثت هاجر عن الماء فعندما تفجَّر الماء عند قدمي إسماعيل رأته الطير، فاهتدى الناس بالطير وسكنوا إلى جوار الماء، حيث هدتها فطرتها إلى الدفاع عن حياة ابنها فتهرول خلف الماء طلبًا للنجاة والاستقرار، حتى تقول له من عند قدميه: زمي، زمي، زمي، وترتوي وتدر لبنًا يحميه من الهلاك، ويكون سعيها بين جبلي الصفا والمروة شعيرة يأتي المليارات من المسلمين من بعد يعظمونها أكبر التعظيم ويصير ذلك الجري بين الصفا والمروة أهم أركان فريضة كبرى وهي فريضة الحج في آخر ديانات السماء وهي الديانة الإسلاميَّة، ويكون ماء بئر زمزم شفاءً لما شُرب له.

وعُمرت مكة ورزق الله أهلها من الخيرات والطيبات إكرامًا للسيدة هاجر وابنها سيدنا إسماعيل عليه السلام واستجابة لدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام لأهل تلك البلاد.



73

أم سلمة المخزوميّة (رضي الله عنها)

(صبرًا حتى لو نزعوا ابني مني)



هي أم المؤمنين، هند بنت أبي أمية حذيفة بن المغيرة المخزومية القرشية المشهورة بكنيتها أم سلمة، والدها سيّد من سادات قريش المعدودين، وكان بين الناس مشهورًا بالكرم وشدّة السخاء حتى لُقّب بـ " زادُ الراكبْ "، إذ كان يمنع من يرافقه في سفره أن يتزوّد لرحلته ويكفيه مئونة ذلك. وأمها هي السيدة عاتكة بنت عامر بن علقمة بن عدنان، وهي بنت عم خالد بن الوليد رضي الله عنه، وبنت عم أبي جهل بن هشام.

كانت أم سلمة رضي الله عنها من الجيل الأوّل الذي أسلم مبكّرا في مكة، ونالت في ذلك ما ناله المؤمنون الأوائل من صنوف الأذى وألوان العذاب، حتى أذن الله للمؤمنين بالهجرة الأولى إلى الحبشة، لتنطلق هي وزوجها عبد الله بن عبد أسد المخزوميّ مهاجريْن في سبيل الله، فارّين بدينهم من أذى قريشٍ واضطهادها، محتمين بحمى النجاشي الملك المسيحيّ العادل بالحبشة.

ولّما أرادت تلك الأسرة أن تهاجر إلى المدينة، واجهت الكثير من المصاعب والابتلاءات، فقد تسامع قومها بنو المغيرة بتأهّبها وزوجها للرحيل فقالوا لزوجها: " هذه نفسك غلبْتنا عليها، فعلام نتركك تأخذ أم سلمة وتسافر بها ؟ "، فنزعوا خطام البعير من يده وأخذوها منه، فغضب لذلك بنو عبد أسد قوم زوجها، وقالوا: " والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا ". فتجاذبوا الولد بينهم حتى خلعوا

يده، وانطلق به بنو عبد أسد، وظلّت أم سلمة عند بني المغيرة وانطلق الزوج مهاجراً بمفرده وأنتُزع منها ابنها.

وهكذا تفرّق شمل الأسرة، وابتليت بلاءً عظيمًا، فالزوج هاجر إلى المدينة، والزوجة عند أهلها في مكة، والولد مع أهل أبيه، مما كان له عظيم الأثر على نفس أم سلمة رضي الله عنها، فكانت تخرج كل يوم إلى بطحاء مكة تبكي، وتتألم لما أصابها، وظلّت على حالها قرابة سنة، حتى مرّ بها رجل من قومها وهي تبكي، فرحمها ورقّ لحالها، فانطلق إلى قومه قائلاً لهم: " ألا تطلقون سبيل هذه المسكينة ؟ فإنكم فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها "، فأجابوه لذلك وقالوا لها: " الحقي بزوجك إن شئت ".

ولما سمع بنو عبد أسد ذلك ردّوا عليها ولدها، فانطلقت من فورها إلى المدينة، تقول أم سلمة رضي الله عنها واصفةً رحلتها: " فجهّزت راحلتي، ووضعت ابني في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله، حتى إذا كنت بالتنعيم – موضع من مكة – لقيت عثمان بن طلحة – وكان يومئذ مشركًا –، فقال لي: إلى أين؟ قلت: أريد زوجي بالمدينة، فقال: هل معك أحد؟ فقلت: لا والله، ما معي إلاّ الله وابني هذا، فأخذته النخوة، فقال: والله لا أتركك، فأخذ برباط البعير فانطلق معي يقودني، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب أكرم منه، كان إذا نزل المنزل أناخ بي ثم تنحّى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فجهّزه، فأخذ برباطه فقادني، فلم يزل يصنع ذلك حتى أقدمني المدينة".

وفي غزوة "أُحد" أُصيب زوجها بجرح عميق، وبعد شهور تُوفي رضي الله عنه متأثراً بجرحه، وهذا ابتلاء آخر يصيب أم سلمة، بعد رحيل زوجها من الدنيا تاركًا وراءه أربعة من الأولاد هم: برة وسلمة، وعمر، ودرة.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفكر في أمر تلك المرأة الكريمة، المؤمنة الصادقة، الوفية الصابرة، فتقدم لها وتزوجها مكافأة ومواساة لها، ورعاية لأبنائها.

تقول أم سلمة رضي الله عنها: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله ﴿ إنا لله وانا إليه راجعون ﴾ اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها، فلما مات أبو سلمة قلت:

أي المسلمين خير من أبي سلمة ؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: أرسل إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له، فقلت: إني كبيرة السنّ، وذات عيال، فقال صلى الله عليه وسلم: أنا أكبر منك، وأما العيال فإلى الله ورسوله) رواه مسلم، فتزوّجها النبي صلى الله عليه وسلم في شوال سنة أربع من الهجرة.

وقد أخذت أم سلمة حظًا وافرًا من أنوار النبوّة وعلومها، حتى غدت ممن يُشار إليها بالبنان فقها وعلماً، بل كان الصحابة يفدون إليها ويستفتونها في العديد من المسائل، ويحتكمون إليها عند الاختلاف، ومن ذلك أن أبا هريرة وبن عباس اختلفا في عدة المتوفى عنها زوجها إذا وضعت حملها، فقال أبو هريرة: لها أن تتزوج، وقال ابن عباس: بل تعتدّ أبعد الأجلين، فبعثوا إلى أم سلمة فقضت بصحّة رأي أبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين.

وكانت- رضي الله عنها- من النساء العاقلات الناضجات، يشهد لهذا ما حدث يوم الحديبية، بعد كتابة الصلح، حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بالتحلل من نسكهم، وحثّهم علي النحر ثم الحلق، فشقّ ذلك على الصحابة الكرام، ولم يفعلوا، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سلمة مغاضباً، فذكر لها ما كان من أمر المسلمين وإعراضهم عن أمره، ففطنت - رضي الله عنها -إلى سبب إعراضهم وعدم امتثالهم، فقالت للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله أتحب أن يمتثلوا لأمرك؟ اخرج فلا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك، فقام وخرج، ولم يكلم أحدًا حتى نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا فجعل بعضهم يحلق بعضاً، قال الإمام ابن حجر: " وإشارتها على النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية تدل على وفور عقلها وصواب رأيها ".

كان وجود أم المؤمنين أم سلمة، وأم المؤمنين عائشة خاصة بين الصحابة، وتأخر وفاتهما بعد النبي من العوامل المهمة التي جعلت الناس يقصدونهما خاصة للسؤال والفتيا، وبعد وفاة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- سنة (٥٨هـ)، تربعت أم سلمة ا على سدة الرواية والفتيا لكونها آخر من تبقى من أمهات المؤمنين، الأمر الذي جعل مرويّاتها كثيرة، إذ جمعت بين الأحكام والتفسير والآداب والأدعية .. إلخ.

إنّ مرويّات أم سلمة معظمها في الأحكام، وما اختص بالعبادات أساسًا كالطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج، وفي أحكام الجنائز، وفي الأدب، وفي ستر العورة، وفي رفع الرأس إلى السماء عند الخروج من البيت، والمرأة ترخي من إزارها ذراعًا، وروت في الأشربة، والنهي وخلط النبيذ بالتمر وفي النكاح، وفي الإحداد والرضاع... كما روت في المغازي، والمظالم والفتن، وروت في المناقب في ذكر عليّ وذكر عمّار، وهذا يدل على قوة حافظة أم سلمة واهتمامها بالحديث.

وفي شهر ذي القعدة من العام التاسع والخمسين للهجرة أسلمت روحها الطاهرة إلى خالقها، وكانت قد بلغت من العمر أربعًا وثمانين سنة، حين بلغها مقتلُ الحسين فوجَمَت لذلك، وحَزِنَت عليه كثيراً، وغُشيَ عليها، ولم تلبث بعدهُ إلاّ يَسيرًا، فكانت آخر أمهات المؤمنين موتًا، فرضي الله عنها، وعن جميع أمهات المؤمنين.

75

الخنساء

(أعظم الصابرات في تاريخ العرب)

هي تماضر بنت عمرو بن الحارث السلميّة، ولقبها الخنساء، ومعناه الوجه الذي يشبه الغزال في أرنبة الأنف وجمال العينين.

عُرفت الخنساء (رضي الله عنها) بحريّة الرأي وقوة الشخصية ونستدل على ذلك من خلال نشأتها في بيت عز وجاه مع والدها وأخويها معاوية وصخر، والقصائد التي كانت تتفاخر بها بكرمهما وجودهما، زواجها الثاني كان من ابن عمها مرداس بن أبي عامر السلمي، وأنجبت منه أربعة أولاد.

وأكثر ما اشتهرت به الخنساء في الجاهليّة هو شعرها، وخاصّة رثاؤها لأخويها صخر ومعاوية والذين ما فتأت تبكيهما حتى خلافة عمر -رضي الله عنه، وكانت أشهر الشاعرات العربيات قاطبة. حين علمت ببعثة النبي محمد -صلى الله عليه وآله وسلّم، قدمت على النبي مع قومها بني سليم وأسلمت معهم، وحسن إسلامها، وهاجرت مع المسلمين إلى المدينة المنورة هي وأولادها الأربعة، وخرجت في عدة غزوات مع المسلمين، وكانت الخنساء تتميز بقوة الشخصية وقدرتها الفذة على قرض الشعر والبلاغة وحسن المنطق والبيان تتضح شجاعتها وتضحياتها في موقفها يوم القادسية واستشهاد أولادها.

حيث قالت: الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم. تلك المرأة العربية التي سميت بالخنساء، واسمها تماضر بنت عمرو، ونسبها ينتهي إلى مضر. مرت بحالتين متشابهتين لكن تصرفها تجاه كل حالة كان مختلفا مع سابقتها أشد الاختلاف، متنافرا أكثر التنافر، أولاهما في الجاهلية، وثانيهما في الإسلام، وإن الذي لا يعرف السبب يستغرب من تصرف هذه المرأة.

- **أما الحالة الأولى** فقد كانت في الجاهلية يوم سمعت نبأ مقتل أخيها صخر، فوقع الخبر على قلبها كالصاعقة في الهشيم، فاشتعلت النار به، وتوقدت جمرات قلبها حزنا عليه، ونطق لسانها بمرثيات له بلغت عشرات القصائد.

- **أما الحالة الثانية** التي مرت بها هذه المرأة والتي هي بعيدة كل البعد عن الحالة الأولى: فيوم نادى المنادي أن هبي جيوش الإسلام للدفاع عن الدين والعقيدة ونشر الإسلام، فجمعت أولادها الأربعة وحثتهم على القتال والجهاد في سبيل الله، لكن الغريب في الأمر يوم بلغها نبأ استشهادهم، فما نطق لسانها برثائهم وهم فلذات أكبادها، ولا لطمت الخدود ولا شقت الجيوب، وإنما قالت برباطة جأش وعزيمة وثقة: "الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم، وإني أسأل الله أن يجمعني معهم في مستقر رحمته"!

ومن لا يعرف السبب الذي حول هذه المرأة من حال إلى حال يظل مستغربا، ويبقى في حيرة من أمره فهذه المرأة تسلل إلى قلبها أمر غير حياتها، وقلب أفكارها، ورأب صدع قلبها، إنها باختصار دخلت في الإسلام، نعم دخلت في الإسلام الذي أعطى مفاهيم جديدة لكل شيء، مفاهيم جديدة عن الموت والحياة والصبر والخلود.

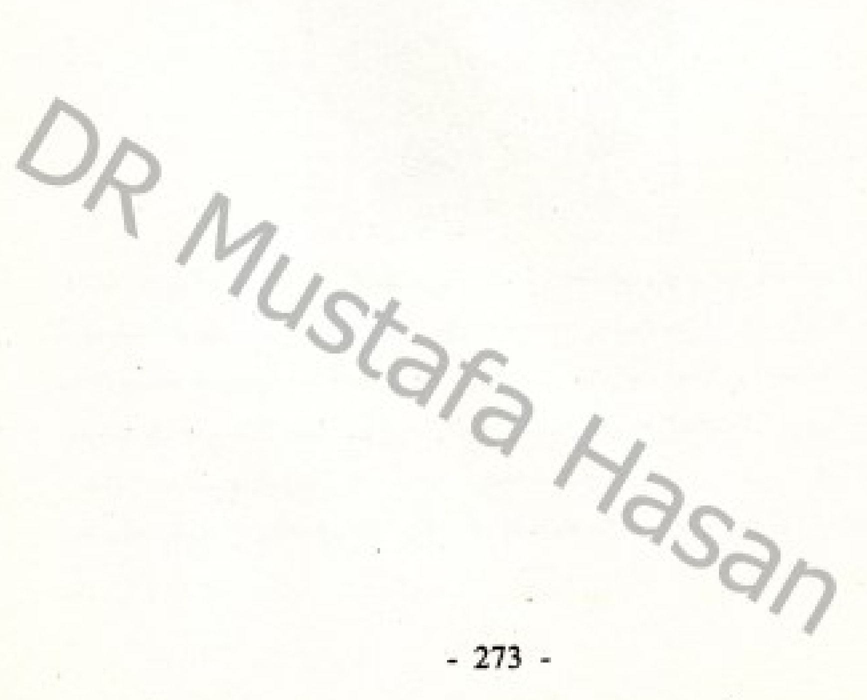
فانتقلت من حال اليأس والقنوط إلى حال التفاؤل والأمل، وانتقلت من حال القلق والاضطراب إلى حال الطمأنينة والاستقرار، وانتقلت من حالة الشرود والضياع إلى حالة الوضوح في الأهداف، - وتوجيه الجهود إلى مرضاة رب العالمين.

وهكذا نرى أن الخنساء في الجاهلية رثت أخويها وطلبت الثأر ممن قاتلهم ولكنها في الإسلام لم ترثي أولادها الذين استشهدوا في سبيل الدين وكانت معهم في معركة القادسية وكانت هي التي دفعت بهم إلى أرض المعركة واصطحبتهم معها وقالت لهم قبيل المعركة "يا بني إنكم أسلمتم وهاجرتم مختارين والله الذي لا إله غيره إنكم لبنو

رجل واحد وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين. واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين. وإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت لظى على سياقها وجللت نارا على أرواقها فتيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة".

فلمّا وصل إليها نبأ استشهادهم جميعًا قالت: "الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته".

توفيت بالبادية في أول خلافة عثمان رضي الله عنه سنة ٢٤ هـ عن عمر يناهر سبعون عامًا عاصرت فيهم الجاهليّة والإسلام. ولم تحزن على وفاة أبنائها الأربعة في سبيل الدين، فاستحقت مني أن أعتبرها واحدة من أعظم الصابرات عند العرب والمسلمين.



80

سمية آل ياسر



السيدة سمية والدة عمار بن ياسر، هي أول شهيدة في الإسلام، ويكن لها المسلمون تقديرًا كبيرًا؛ لأنها تحملت التعذيب حتى الموت ولم تتراجع عن إيمانها بالله الواحد الأحد وبرسوله الكريم سيدنا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم. **فمن تكون تلك السيدة العظيمة؟!**

اسمها سمية بنت خبط، ولدت في مكة المكرمة، وكانت مولاة أبي حذيفة بن المغيرة بن عبد بن عمرو بن مخزوم.

تزوجت من عربي في مكة كان حليفًا لسيدها واسمه ياسر، ولدت له ابن أسموه عمار، وقد أعتقت من العبودية هي وزوجها ياسر عندما أنجبوا ابنهم، تعرضت لعذاب شديد عندما اعتنقت الإسلام هي وزوجها وابنها، وكانت سابعة سبعة ممن اعتنقوا الإسلام أولاً في مكة المكرمة، وقد أدى ذلك إلى بداية تعذيبها لأنها كانت من الضعفاء الذين لا تحميهم قبائلهم أو عشيرتهم في أولى مراحل الدعوة الإسلاميّة. كان هذا العذاب من آل بني المغيرة، ولكنها أبت أن تتراجع عن موقفها، وكان ذلك في صدر الإسلام ولم يكن هناك من يدافعون عن من يشهرون إسلامهم علنًا، وبدأت مرحلة التعذيب لسمية وابنها وزوجها، فكان آل بني المغيرة يعذبونهم بمنطقة الأبطح في رمضاء مكة بعد ربطهم بالدروع الحديدية وتركهم بالشمس، وكان رسول الله -صلى الله عليه وآله

وسلم- عندما يمر بهم ويشاهد قسوة العذاب الذي يتعرضون لها يقول لهم -صلى الله عليه وسلم: "صبرًا آل ياسر إن موعدكم الجنة".

وفي إحدى مرات ذلك التعذيب، جاء أبو جهل إلى سمية فطعنها بحربة في قلبها توفيت على أثرها إلى رحمة الله.

واعتبرت السيدة سمية أول مجاهدة وأول شهيدة في الإسلام. ولذلك وضعتها ضمن أعظم مائة امرأة في التاريخ في كتابي هذا.

83

رابعة العدوية

(رائدة الزهد في التاريخ الإسلاميّ)



رابعة العدوية شخصيّة نسائيّة إسلاميّة ظهرت سيرتها في مدينة البصرة بالعراق في القرن الثاني الهجريّ (الثامن الميلادي) كأول زاهدة متصوفة سُجلت حياتها عن طريق مؤرخ يسمى العطار، وتعتبر من أولى النساء اللاتي آخذهن بمبدأ التصوف والزهد والتفرغ لحب الله وعبادته حتى انتهى بها العمر وهي على تلك الحالة. **فمن تكون هذه السيدة؟**

الزهد في ذلك الحين كان مستمدًا من الأصول والتعاليم الموجودة في تراث التصوّف المسيحيّ في مصر والعراق، والرهبنة التي نشأت أول ما نشأت على أرض مصر من شدة تمسك المصريين وحبهم للدين المسيحيّ الذي طالما دافعوا عنه، واستشهد منهم الكثيرون على يد الرومان وذلك قبل ظهور الإسلام، أمّا رائد الزهد الأول في التاريخ الإسلاميّ فهو العالم الحسن البصريّ الذي نشأ في العراق واتخذ في زهده الحزن والورع شعارًا، وكان يجد في حياته الدينيّة والعلميّة قناعة الروح وعزاء النفس عن كل ما مسّه وأصابه من جرّاء التقاليد العربية في المباهاة بالأموال والأنساب، مستعينًا بعزة التقوى وكرامة العالم عن كل جاه، حتى شاع ذكره وفضله في البصرة بالمحبة والوقار، فإذا تحدث القوم بالفقه والبيان والزهادة قالوا: هو الإمام في هذه المزايا والعميد، وكان أستاذ عصره في زهد النفس والجسد وعلم أجيالاً ومنهم رابعة العدوية.

ذكر ابن خلكان أنّ رابعة العدوية من آل عتيك وهم بطن من بطون قبيلة قيس ولذا كانت تسمى رابعة القيسيّة، وآل عتيك جزء منهم بنو عدوة، ولهذا سميت رابعة العدوية. وقد أطلق والدها اسم رابعة عليها لأنّه كان لديه ثلاث بنات قبلها، وكان يتوقع أن تلد زوجته ولدًا يعينه في الدنيا كما كان يعتقد العرب حينذاك، ولكنها جاءت انثى فأسماها رابعة، أي: الرابعة في البنات ووالدها هو إسماعيل العدويّة، أما كنيتها فهي أم الخير.

مات أبوها وهي في مستهل صباها، ولم تلبث أمها أن توفيت بعده، فذاقت رابعة طعم الشقاء هي وأخواتها الثلاثة، لكنها تجلدت للمصيبة واتخذت من الإيمان والقناعة وسيلة على العيش يتيمة معدومة في وجود واسع مثل ضائع يتلمس هدى السبيل.

ظهر في الربع الأول من القرن الثاني الهجريّ قحط ومجاعة أصابت الفقراء عندما جفت الأرض وأجدبت، وكان من بين من تأثروا به رابعة وأخواتها وهمن على وجوههن من أجل الخبز والقوت، في تلك الأثناء برز المستغلون من اللصوص وباعة الرقيق واختطفوا رابعة من أخواتها وباعوها في سوق الرقيق كإحدى السبايا، واشتراها تاجر كبير وأخذها تخدم في بيته، وكان غليظ القلب كثير الإهانة لها، وكانت في ليلها تشكو إلى الله أثناء صلاتها وتقول: إلهي أنا يتيمة معذبة أرسف في قيود الرق، وأنوء بالقهر والضيم؛ لكن همي الأكبر هو أن أعرف أراضٍ عني أم غير راضي؟

وفي إحدى المرات كانت تشتغل في بيت سيدها رغم أنها كانت مكسورة في إحدى يديها، ومن الألم والمشقة كانت تدعو الله أن يخفف عنها ولا يتركها تحت رحمة هذا المخلوق القاسي من عباده وكان ذلك ليلاً، فلما سمع الرجل، هَمّ في أن ينظر إلى خشوعها ويتأمله حتى خيّل إليه أنه يرى فوق رأسها سراجًا منيرًا يضيء ما حولها، فهب من فوره مناديًا رابعة رابعة. متلمسًا منها أن تصفح عنه وتأخذ حريّتها قائلاً لها: أنت حرة يا رابعة، إن شئت بقيت عندي، وإن شئت انطلقت حيثما يروقك العيش.

كان ذلك أول خروج لرابعة من سجن العبوديّة التي رزحت فيه منذ وفاة والديها، ولكنها سعت إلى كسب العيش والرزق ولم تكن تعرف أي مهنة سوى ما تعلمته أثناء العبودية من حرفة العزف على الناي والطرب والغناء، ولكن هذا الجو الذي كان يصاحبه شرب الخمور واللهو من رواد تلك الأماكن كان يعذبها، وإن كانت تجاريهم

للحصول على لقمة العيش، ولكن فجأة انتفض في داخلها الإيمان وحب الله والتدين الحق، لأنّ الله قد لبّى دعائها وحررها من ذلّ العبوديّة إلى الحريّة التي يعيشها الآخرون؛ فكيف تقابل ذلك باشتغالها وعملها مع من يعصون الله؟ وكان ذلك واضحًا في مجتمع أهل البصرة عندما كثُر الزهّاد مقابل كثرة اللاهين والعابثين، عندما ظهرت بوادر الثروة في المجتمع الإسلاميّ بعد أن تفتحت لهم أبواب البلاد المجاورة وتسربت إليهم أسباب اللهو والمجون، آنذاك ظهر الحسن البصري وتابعوه من الزهاد، وكانت رابعة أبرز هؤلاء فيمن أخذوا مبدأ الزهادة والعبادة والتصوّف.

بدأت رابعة تنتظم في حلقات الدروس الدينيّة والفقه ومجالس الإمام الحسن البصريّ، بعد أن ابتعدت عن ماضيها وعن من تعرفهم من قبل وتفرغت للعبادة والصوم والدعاء وعاشت حياة التقشف حتى إنها كانت تأكل وجبة واحدة كل يوم، وكانت كثيرًا ما تصوم ولم تشكو ولم تتألم؛ لأنه من المعروف أن أهل الزهد يعيشون في أنفسهم (وهؤلاء موجودين في كل الديانات السماويّة والعقائد الأخرى) وكانت نباتية لا تأكل اللحم ولا الغزلان حتى يقال إن الغزلان كانت تعطيها الأمان وتتجوّل بجانبها في الصحراء غير متوجسة منها، وكانت قانعة بالملبس البسيط الذي يسترها فالدين وحده كان الشعاع الأعظم الذي أغناها عن كل ما تأخذه أيّه امرأة ثم كان التزامها المشيخة والصوفيّة ومتابعة التفقه في شئون الدين وحب الله والتقرب إليه مشغلة لها عن كل شيء.... لم تعبأ بشباب العمر ولا بمطاليه، ويقال إن أمير البصرة محمد بن سليمان الهاشمي عندما أراد أن يتزوج سأل عمّن تليق به من النساء، فأجمع من استشارهم على أن تكون رابعة، وتقدم لخطبتها قائلاً: لي غلّة، عشرة الآف دينار في كل شهر أجعلها لك، فأرسلت إليه الرد الآتي: أمّا بعد فإنّ الزهد في الدنيا راحة البدن، والرغبة تورث الهم والحزن، فهيء مزادك وقدم لمعادك، أمّا أنا فلو أعطاني الله أمثال ما حزت وأضعافه لم يسرني أن أنشغل عن الله طرفة عين والسلام.

أما الشيء العجيب الذي حدث بعد ذلك فهو أن تقدم لها أحد الزاهدين لخطبتها وهو المتصوّف عبد الواحد بن زيد، فرفضت أن تراه من المبدأ وأرسلت له تؤنبه وتلومه لأنه وهو الزاهد مثلها يريد أن يصرفها عمّا أخذت به نفسها من العبادة والعزلة لتتفرغ إلى صلاتها ونسكها.

وهكذا مضت رابعة العدوية في حياتها وكانت أولى الزاهدات في بيتها المتواضع وحياتها البسيطة التي أمضتها في العبادة وحب الله حتى سميت بأم الخير، ورضيت أن تتنازل عن متاع الدنيا والأمومة ووهبت حياتها -كلها- لله لا للإنسان الذي لقيت منه في الدنيا العبوديّة والشقاء والشهوانيّة وقد حرمها الحريّة. فاتخذت من الزهد سبيلاً لقوام أمرها ومراد عقلها حتى توفيت إلى رحمة الله.

85

جميلة بو حيرد

(مثال النضال اللامحدود)



إنَّ التضحيات مهما بلغت من التفاني والاستعداد يمكن أن تذهب هدرًا إذا لم تجد من يعطيها معانيها السامية ويحفز تلك المعاني في تلابيب النفوس (عن طريق التعريف بتلك الشخصيات العظيمة وذكر بطولاتهم)، هذه الكلمات الرائعة قرأتها في مجلة نصف الدنيا العدد (١٠٠١) في إبريل (٢٠٠٩) وكان الموضوع عن السيدة الجزائريّة التي كانت واحدة من أعظم المناضلات عربيًا وأفريقيًا وعالميًا في القرن العشرين بحسب ما ذُكر عنها في المجلات والصحف العالمية، سواء أوروبيّة، أو أمريكيّة، أو روسيّة أو صينيّة في القرن الماضي. **فمن تكون تلك السيدة؟؟**

ولدت السيدة جميلة بو حيرد في (٩ يونيو عام (١٩٣٥م) في حي القصبة في الجزائر لأب جزائريّ وأم تونسيّة وكلاهما كان مثقفًا ثقافة جيدة. تلقت تعليمها الأولي بالجزائر والتحقت كطالبة في معهد للخياطة والتفصيل. وفي سن العشرين بدأت معرفتها بثوّار الجزائر وانضمت إليهم مع مجموعة من الفتيات الجزائريّات عام(١٩٥٦م) وعرفت قوات الاحتلال الفرنسيّ هذه المجموعة من المناضلات من العنصر النسائيّ وبدأت في مطاردة جميلة بو حريد بعد أن اكتشفوا أنّ في بيت أهلها في حي القصبة مصنعًا للقنابل. استطاع عمها الهرب ولجأ إلى مأوى مؤقت، ولكن قُبض عليه وأحيل للمحاكمة وأعدم. قبل ذلك بأيام تم القبض عليها وحوكمت بتهمة مقاومة قوات الاحتلال الفرنسيّ هي وأربعة فتيات أخريات. حُكم عليها بالاعدام هي وزميلتها في الكفاح جميلة بو عزة.

عندما سُألت السيدة جميلة بو حريد بعد ذلك عن شعورها عندما تلقت هذا الحكم قالت: كان أجمل يوم وطني في حياتي؛ لأنني كنت مقتنعة بأنني سأموت من أجل أروع قصة في الدنيا والوجود. ثم أنّها لحظة تميّز. ينفصل فيها الإنسان عن انتمائه في الحياة ويشعر بأنّه ينتمي إلى الموت الكريم. وذلك ما ذكرته لمجلة نصف الدنيا بمصر. الصادرة عن مؤسسة الأهرام.

وقد أثار الحكم بالإعدام عليهن عاصفة في الرأي العام العالميّ والعربيّ مما اضطر السلطات الفرنسيّة إلى تخفيفه واستبداله بعقوبة السجن. وبقيت جميلة بو حيرد في السجن حتى نالت الجزائر استقلالها وتم إطلاق سراحها هي ورفيقاتها. الأدوار التي يحسب الفضل فيها لأصحابها هو دور محاميها الفرنسيّ الذي تطوع بالدفاع عنها في محنتها. وكذلك دور الزعيم العظيم شارل ديجول رئيس فرنسا في ذلك الوقت الذي مهّد الطريق لاستقلال الشعب الجزائريّ. عرفانًا بما قام به الجنود الجزائريّين في الدفاع عن فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية. واحترامًا للبلد الذي ضحى بمليون شهيد من أجل حريته.

كان سيناريو النضال والمراحل التي مرّت بها جميلة بو حيرد أثناء القبض عليها وهي تنزف دمًا. ثم السجن. ثم المحاكمة. كفيلة بأن تضعها على قمة مجاهدات القرن العشرين. لأنّها علّمت النساء كيف يذوب الفرد لصالح أمته ووطنه. وصفق لها الوطن العربي والعالم أجمع محبة واعتزازًا وتقديرًا. واعتبروها من أهم الشخصيّات في القرن العشرين. وربما تكون أهم وأشهر شخصيّة نسائية في تاريخ المرأة الجزائريّة

في العصر الحديث، وتم عمل فيلم مصريّ رائع عن حياتها ونضالها، قامت ببطولته الفنانة المصريّة القديرة ماجدة الصباحي وانتجته على حسابها الشخصيّ، ولم تكن تنتظر إيرادًا من فيلم سياسيّ، ولكنها انتجته تحية وتقديرًا واقتناعًا منها بأنّ جميلة بو حيرد نموذج حيّ أمامها للمرأة العربيّة والجزائريّة، ولكي تجسد روائيًا ذكرى هذه المناضلة، ولأن جميلة بو حيرد كانت لا تميل للظهور الإعلاميّ أبدًا، حتى أنّ الرئيس الصيني العظيم ماوتسي تونج عندما قابلها في الستينات قال لها: اسمحي لي أيتها الرفيقة أن أقول لك كرفيق درب عجوز إذا لم تتحدثي عمّا قمت به فسيأتي آخرون ليتحدثوا بدلاً منك عما لم يقوموا به. أمّا هي فكان إحساسها أنّ ما قامت به من نضال هو واجب مقدس وليس فعلاً يمكن التحدث عنه بزهو.

هذه سيرة السيدة التي اعتبرناها رمزًا لنا في الاعتزاز بالحس الوطنيّ العربيّ والإسلاميّ، ولسنا جزءًا من ممالك ودول أخرى جنوبًا أو شمالاً، وكانت نبراسًا لنا في حب الوطن والتضحية من أجله بالعمل والكفاح، ولذلك اخترتها لتكون أحد الشخصيّات المجاهدات في كتابي هذا، الذي ليس له انتماء سياسيّ أو دينيّ أو طائفيّ فالوطن أولاً وأخيرًا هو إنتماءها.

93

والدة الإمام الشافعي

(أطلب العلم وأنا أكفلك بمغزلي)

الإمام الشافعي –رضي الله عنه– هو أحد الأئمة الكبار في العالم الإسلاميّ –رضي الله عنهم جميعًا، ولكن قصة دراسته وتفوقه على أقرانه من الدارسين يقف وراءها بعد الله السيدة العظيمة أمه، ذلك لأنها عند وفاة والده إدريس بن شافع بن سائب القرشي (وكان عمر ابنها في ذلك الوقت ثلاث سنوات) كانت تستطيع أن تتزوج أو أن ترفض رغبة ابنها في أنه يريد أن يتعلم ويدرس أمور الدين، وتتعلل بأنهم فقراء وليس بوسعها شيء تفعله، أو تنصحه بترك الدراسة لمن يستطيع أن يتحمل نفقاتها كما يفعل كثير من الأمهات، ولكن أم الإمام الشافعي كانت مَدرسَة في حدّ ذاتها وبدأت تُلقنه ما تعرف من أمور الدين وهو طفل صغير، حتى حان سن التحاقه بالدراسة أي: أنها مهدت له السبيل وأعدته لتحقيق طموحاته وقالت له أطلب العلم وأنا أكفلك بمغزلي **فمن تكون تلك السيدة العظيمة؟؟**

ولد الإمام الشافعي في غزة بفلسطين رغم أن جده شافع ولد بالمدينة، وقد هاجر والده إلى غزة بسبب الفقر الشديد، وعاش بها مع زوجته حيث أنجبا الإمام الشافعي هناك، وبعد ثلاث سنوات من مولد الشافعي توفي والده، وترك الزوجة الشابة مع طفلها اليتيم في بلد غريب يحاصرهما الفقر، وهنا تبدأ قصة حياة مليئة بالكفاح والإصرار.

كانت أمه امرأة ذكية، وعاقلة. ذهبت ذات مرة لتشهد في قضية مع امرأة أخرى ورجل كما تنص الشريعة، طلب القاضي من المرأتين أن تدخل كل منهما في غرفة منفصلة لسؤالها؛ فقالت أم الإمام الشافعي للقاضي: ليس لك هذا، فقال لها القاضي: لما؟ فقالت: الله يقول "فتذكر إحداهما الأخرى" لهذا لا بد أن نكون معًا في مكان واحد، فانبهر القاضي بسرعة بديهتها وعلمها واتخذت الأم لنفسها رسالة. حين أدركت أنها فقيرة غريبة لكنها قررت أن تربي ابنها بحيث يستطيع أن يشارك في حل مشكلات الأمة الإسلامية، ورأت أنّ الحل يبدأ بالعلم، فقررت تعليمه مهما كلفها ذلك من مشقة، وعادت به إلى مكة المكرمة مركز العلم، وكان عمره ثلاث سنوات فقط، قالت له أمه عندما كبر قليلاً وصار عمره أربع سنوات: يا بني.. مات أبوك ونحن فقراء لا مال لنا، ولم يترك لنا شيئاً، وأنا لم أتزوج من أجلك، يا بني قد نذرتك للعلم لعلّ الله يصلح بك ويجمع بك شمل هذه الأمة، وهذه الأم لم تمت إلاّ بعد أن صار الشافعي إمامًا عظيماً.

في مكة ذهب الشافعي إلى الكُتاب ليتعلم العلم ويحفظ القرآن، كان عمره أربع سنوات عندما التحق بالكتّاب، وكان المعلم يريد أن يحصل على أجره، فتذهب الأم إلى المعلم وترجوه أن يصبر ويستمر في تعليم ابنها حتى يرزقها الله بالمال الذي تدفعه له، ولاحظ الشافعي أن معلمه يهمله ويهتم بغيره من التلاميذ أبناء الأغنياء، فعاد الشافعي يبكي لأمه ويشكو لها إهمال المعلم له (وقد كان دخلها من خيوط الغزل قليلاً).

وقال لها: لا أريد أن أذهب إلى المعلم قالت: لما؟ قال: يتركني ويعلم الآخرين. فقالت: يا بني اصبر فإذا تركك المعلم وذهب إلى الأغنياء ليعلمهم، فابحث لنفسك عن مكان بجوار الغني، وتعلم واسمع، ولكن لا تشعره أنك تتطفل عليه.

يقول الشافعي: ففعلت ما أمرتني به أمي، فتعلمت الذل للعلم والأدب للمعلم. وبعد فترة وجيزة صار أحسن التلاميذ، ثم تطور الأمر أكثر، فصار يشرح الدروس لزملائه أثناء عدم وجود المعلم في قاعة الدروس، ولاحظ المعلم ذلك، فاهتم به وقال له: أنت تقوم عني في الشرح عندما أتغيب، وأنا لا آخذ منك الأجر.

يقول الشافعي: فعدت إلى أمي وحكيت لها ما جرى فضحكت، قالت: ألم أقل لك أن الله سيفرجها عليك وتنال بإذنه ما تصبو إليه.

مكث الشافعي في الكتّاب من عمر ٤ سنوات إلى عمر ٨ سنوات، وتخرج فيه في هذا السن وقد حفظ القرآن الكريم كله.

وبدأ بعد ذلك في حفظ الأحاديث النبوية الشريفة والتفسير، على أيدي سفيان بن عيينة في التفسير، ومسلم بن خالد إمام الحرم المكيّ في الحديث، تتلمذ على أيديهما من سن ٨ سنوات حتى سن ١٢ سنة، حفظ الشافعي كل التفسير الذي قيل في عصره كما حفظ الأحاديث النبوية كلها التي يعلمها أهل مكة.

وكانت مشكلة الشافعي أنه لا يمتلك المال الذي يشتري به الورق الذي يكتب عليه الأحاديث، فقالت له أمه: لا عليك، وكانت تخرج إلى ديوان الوالي لتجمع له الأوراق التي كتب على أحد وجهيها ورميت في سلال المهملات، فيأخذه الشافعي ليكتب على الوجه الآخر. وكانت حين ينتهي ديوان الوالي تقوم بجمع ما تبقى من أوراق، وكانت أمه عندما ترى أحدًا يريد أن يتصدق على ابنها اليتيم، تقول له: تصدق عليه بالورق.

كانت نقطة التحوّل في حياة الإمام الشافعي عندما بلغ الثالثة عشرة من عمره وأتقن من العلوم: القرآن، والتجويد، والأحاديث، والتفسير. ثم جاء الليث بن سعد إمام مصر العظيم لزيارة مكة، ليعطي دروسًا في الحرم المكيّ. قال الليث: إنّ من أسباب فرقة الأمّة هذه الأيام اختلافها على تفسيرات المعاني في اللغة العربية، حيث كانت الكلمة الواحدة تفهم بمعانٍ مختلفة فيختلفون في تفسيرها، ويردف الليث: ولو استقاموا على فهم اللغة لاجتمعوا، فمن استطاع أن يجيد التفسير والحديث واللغة، يجمع الله به الناس (مثل ما كان يتمتع به المرحوم الشيخ محمد متولي الشعراوي في العصر الحديث)، ولا توجد اللغة إلاّ في الصحراء، في قبيلة هذيل.

يقول الشافعي: فعدت إلى أمي أحكي لها، فقالت: يا بني... تذهب سويًا إلى هذيل، وكانت تلك أول بعثة علميّة لصبي عمره ١٣ عاماً، كانت أمة تقول له كل يوم: لا تحمل هم المال، سنُرزق، ولكن إحك لي ما تعلمته اليوم.

قضى الشافعي أربع سنوات عند قبيلة هذيل (منطقة بالمملكة العربية لسعودية) بصحبة والدته دارسًا للغة العربية، وقد تعلم أيضًا الشعر والأنساب، يقول: حفظت عشرة الآف بيت شعر ولذا نجد الإمام الشافعي له أبيات شعر وقصائد رائعة في

الحكمة والمحبة والحث على الأخلاق الكريمة، ومما أهله لذلك أيضًا أنه كان لا ينسى ما يسمع أو ما يقرأ، ويلتقط ما يراه سريعًا وهو ما يعرف في العصر الحديث بالذاكرة الفوتوغرافية التي يتمتع بها العباقرة.

وأمد الله في عُمر هذه السيدة العظيمة حتى رأت ابنها إمامًا للمسلمين وصاحب المذهب الشافعي وجاء إلى مصر واستقر بها يعلّم الناس ويرشدهم ويهديهم بإذن الله وكان يعطي حلقات دروسه في مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط وكان في دروسه يميل إلى الوسطية في الدين، ولذا أحبه المصريون وعاش بينهم معلمًا وقاضيًا وزاهدًا بفضل ما تعلمه من أمه من دروس في الصبر والقناعة والشموخ والعصاميّة، بدأت معه من الصفر وأوصلته إلى منتهى طموحه، وتوفي إلى رحمة الله عام ٢٠٤ هـ، وشيعه جموع غفيرة من المواطنين وساروا به من منطقة الإمام حيث منزله حتى مسجد السيدة نفيسة (كريمة الدارين) وهو المكان الذي كانت تقيم به -رضي الله عنها، حيث كانت وصيته -رحمه الله- أن تُصلي عليه السيدة نفيسة عند وفاته، لأنه كان يحترمها ويزكي فيها علمها الغزير وأصلها الشريف، وفعلاً صلت عليه صلاة الجنازة خلف المصلين عليه من الرجال، وتلك هي قصة والدة الإمام الشافعي رحمها الله، التي عملت بغزل الخيوط والصوف لدى الغير، حتى تحقق طموح ابنها وتنفع به جموع المسلمين.